القسم الثالث

النموّ والدين

obeikandl.com

النظرة إلى العالم والدين

في الوقت الذي ينمو فيه انضباط الناس ومحبتهم وتجاربهم في الحياة، فإنّ فهمهم للعالم وموقعهم فيه، ينمو بصورة طبيعية وبالوتيرة نفسها. وفي حال فشلوا في ذلك، فإنّ فهمهم لا يتطوّر على حدٍّ سواء. ومن ثَمَّ، يختلف أبناء الجنس البشري - بصورة استثنائية - في مدى فهمهم لما تتمحور حوله الحياة.

يُمثِّل ذلك الفهم الدينَ الذي نتبعه. ولأنّ كلّ إنسان يملك فهماً ما - نظرة ما إلى العالم، بغضّ النظر عن مدى محدوديتها، أو بدائيتها، أو عدم دقتها - فإنّه يتبع ديناً ما. تُعدّ هذه الحقيقة (يتبع كلّ إنسان ديناً ما) غير المعروفة على نطاق واسع، مهمّة جدّاً.

أعتقد أنّنا نعاني نزعةً قائمةً لتعريف الدين ضمن إطار ضيق جدّاً؛ إذ ننزع إلى الاعتقاد أنّ الدين يجب أن يشمل الإيمان بالله، أو ممارسة الشعائر، أو الانضمام إلى مجموعة تَدين بمعتقد ما. وحين نتحدّث، على الأرجح، عمَّن لا يذهب إلى الكنيسة، أو يؤمن بوجود قوة خارقة، فإنّنا نصفه بِـ (غير المتدين)؛ حتّى إنّني سمعت علماء يقولون أشياء، مثل: «البوذية ليست ديناً في الحقيقة»، أو «الموحدون يستبعدون الدين من معتقدهم»، أو «تُمثِّل الباطنية فلسفة أكثر من كونها ديناً».

وفي واقع الأمر، فإنّنا ننزع إلى التعامل مع الدين بوصفه منظومة متجانسة، لنشعر فيما بعدُ بالحيرة، بسبب ذلك المفهوم السطحي، من الكيفية التي قد يسمي بها شخصان مختلفان نفسيهما مسيحيَّين، أو يهوديَّين. أو من الكيفية التي يمكن بها لملحد - على وجه الاحتمال - أن يملك حسّاً أكبر بالدين المسيحي الأصيل، من كاثوليكي يحضر القداس بصورة روتينية اعتيادية.

اكتشفت في أثناء إشرافي على معالجين نفسيين آخرين بصورة اعتيادية – من وقت إلى آخر – أنّهم يُظهِرون الحدّ الأدنى من الاهتمام – إن وُجِد – بالطرائق التي ينظر بها مرضاهم إلى العالم. توجد أسباب عدّة لذلك، ويكمن أحدها في الفكرة المُتمثِّلة في أنّ المرضى لا يُعَدّون متدينين، في نظر أولئك المعالجين، ما لم تستند مبادئهم الدينية إلى الإيمان بالله، أو الانتماء إلى الكنيسة، وأنّ الأمر لا يحتاج، من ثمّ، إلى مزيد من التمحيص.

تكمن حقيقة المسألة في أنّ الجميع يعتنقون – صراحةً، أو ضمناً – مجموعة من الأفكار والمعتقدات حيال طبيعة العالم الرئيسة. فهل يعتقد المرضى أنّ الكون مليء بالفوضى ومفتقر إلى المغزى أساساً، وأنّه من غير المنطقي – بالنسبة إليهم – ألّا يحظوا بما أمكنهم من المتعة، عندما تكون متوافرة؟ هل ينظرون إلى العالم بوصفه مكاناً للمنافسة الحادّة والشرسة، حيث تُعدّ القسوة ضرورية لبقائهم، أو مكاناً محفزاً، تحدث فيه الأشياء الرائعة على الدوام، ولا يحتاجون إلى أن يقلقوا فيه كثيراً بشأن المستقبل، أو مكاناً يُوفِّر سبل العيش لهم بصرف النظر عن الطريقة التي يديرون بها حياتهم، أو عالماً ذا قوانين صارمة، يطيح بهم وينبذهم، إذ تجاوزوا الحدود ولو قليلاً؟

ينظر الناس إلى العالم من خلال الكثير من الطرائق المختلفة. وسيحيط معظم المعالجين – بصورة عاجلة أم آجلة، في خضمّ العلاج النفسي – بالكيفية التي ينظر بها المريض إلى العالم، ولكن ذلك يحدث سريعاً، ولا يستغرق وقتاً، حين يكون المعالج مهتمّاً بالإحاطة بتلك الكيفية. يجب على المعالجين فعل ذلك حقّاً؛ إذ تُشكِّل نظرة المرضى إلى العالم – على الدوام – جزءاً أساسيّاً من مشكلاتهم، ويُعدّ تصحيح تلك النظرة ضروريّاً لعلاجهم. أُخاطِب من ثمّ، مَنْ أُشرِف عليهم من المعالجين

النفسيين، قائلاً: «أحيطوا بمعتقدات مرضاكم، ولو قالوا: إنّهم لا يعتنقون أيّاً منها».

يُمثّل معتقد المرء أو نظرته إلى العالم عادةً، ما هو غير مكتمل من الوعي لا أكثر؛ إذ لا يُدرِك المرضى غالباً الكيفية التي ينظرون بها إلى العالم، وقد يظنون أحياناً أنّهم يدينون بمعتقد ما، في حين أنّه يسيطر عليهم – بصورة فعلية – ما هو مختلف جدّاً من المعتقدات.

على سبيل المثال، أصبح (ستيوارت)، المهندس الصناعي الناجح، مكتئباً جدّاً في منتصف الخمسينيات من العمر. وعلى الرغم من نجاحه في العمل، وحقيقة أنّه زوج وأب مثالي، فقد كان يشعر بأنّه عديم القيمة وسيّئ، ويتحدّث عن نفسه قائلاً: «سيكون العالم مكاناً أفضل لو مت»، وقد كان يعني ذلك. عمد الرجل إلى محاولة الانتحار مرّتين، ولم يكن بمقدور أيّ محاولة واقعية لطمأنته أن تُؤثّر في (لا واقعية) نظرته إلى نفسه، المُتمثّلة في أنّه عديم القيمة. كان (ستيوارت) يعاني – إضافة إلى أعراض الاكتئاب الحادّ الاعتيادية، مثل الأرق والاهتياج – صعوبةً كبيرةً في ابتلاع طعامه. كان يقول في ذلك الصدد: «لا يقتصر الأمر على أنّ مذاق الطعام كريه فحسب، بل أشعر كذلك بأنّ شفرة من الفولاذ تعلق في حلقي، ولا يمكن إلّا للسوائل أن تمرّ عبرها».

فشلت صور أشعة إكس والفحوص الخاصة في إظهار أيّ خلل عضوي لما يعانيه من متاعب. لم يساور الشكّ (ستيوارت) قطُّ، فيما يتعلّق بمعتقده. وقد تحدّث في ذلك الصدد، قائلاً: «إنّني ملحد بكلّ وضوح وصراحة. فأنا أتبع المذهب العلمي، ولا أُومن إلّا بما يمكن أن أراه وألمسه. لربّما تصبح حالي أفضل لو كان لديّ بعض الإيمان بالله. ولكن، لا يمكنني صراحةً تقبُّل تلك الفكرة. لقد اعتنقتها بما يكفي حين كنت طفلاً، وأشعر بالسعادة أنّني تخلَّصت منها». كان (ستيوارت) قد نشأ في مجتمع صغير

في الغرب الأوسط، ابناً لواعظ صارم مُتشدِّد، وزوجته التي لا تقلّ عنه صرامةً وتشدُّداً، وقد ترك المنزل والكنيسة في أول فرصة لاحت له.

عمد (ستيوارت)، بعد أشهر عدّة من خضوعه للعلاج، إلى رواية الحلم القصير الآتي: «كنت في منزل الطفولة في مينيسوتا، كأنّني لا أزال أعيش هناك كطفل، لكنّني كنت أعلم أيضاً، أنّني في عمري الحالي. كان الوقت مساءً؛ إذ دخل رجل المنزل، وكان ينوي ذبحنا. لم يسبق لي أن رأيت ذلك الرجل قطُّ، لكنّني كنت أعلم مَنْ هو؛ إنّه والد فتاة واعدتها بضع مرّات في المدرسة الثانوية. انتهى الحلم هنا. لم يكن له أيّ خاتمة. استيقظت، وأنا أشعر بالذعر، لا أكثر، عالماً بأنّ ذلك الرجل يريد ذبحنا».

طلبت إلى (ستيوارت) أن يخبرني بكلّ ما يعرفه عن ذلك الرجل الذي رآه في حلمه. فقال: «لا يوجد ما يمكنني أن أُخبِرك به حقيقة. لم ألتقِ هذا الرجل قطُّ. وقد واعدت ابنته بضع مرّات لا أكثر؛ حتّى إنّها لم تكن مواعيد بالمعنى الفعلي، إنّما كنت أرافقها سيراً على الأقدام إلى منزلها، بعد لقاءات مجموعة شباب الكنيسة. وقد استرقت منها قبلة بالفعل في العتمة، وراء الأجمة بينما كنت أرافقها في إحدى المرّات».

وفي هذه الأثناء، ضحك (ستيوارت) بعصبية، ليردف قائلاً: «شعرت في حلمي، بأنّني لم أرَ والدها قطُّ، مع أنّني كنت أعرف مَنْ هو. كنت قد رأيته حقّاً من مسافة بعيدة. فقد كان مدير محطة القطارات في بلدتنا. وكنت أراه من حين إلى آخر، عندما كنت أذهب إلى المحطة، وأُراقِب القطارات عند وصولها بعد ظهيرة أيام الصيف».

ذكَّرني كلامه بشيء مماثل. فقد كنت أقضي وقتي بُعَيْد ظهيرة أيام الصيف – حين كنت طفلاً، ولا يوجد لديَّ ما أفعله – أُراقِب القطارات في أثناء مرورها بالمحطة. كانت محطة القطارات تحفل بالكثير من الأحداث

المتنوعة، وكان مدير المحطة هو مَنْ يُوجِّهها. كان يعرف الأماكن البعيدة التي تأتي منها القطارات الكبيرة لتمرّ ببلدتنا، وكذا الأماكن البعيدة التي تقصدها. كان يعرف أيّ القطارات ستتوقّف، وأيّها سيتابع المسير ليهزّ الأرض بحركته. كان يدير المفاتيح والإشارات. كان يتلقى البريد ويرسله. كان يجلس في مكتبه، حين لا يقوم بتلك الأمور الرائعة، ليقوم بما هو أروع بالضغط على زرّ صغير سحري، ليُشكِّل الإيقاع الناتج من ذلك لغة غامضة يُرسِل عن طريقها الرسائل إلى العالم أجمع.

خاطبته، قائلاً: «أخبرتني يا (ستيوارت) بأنّك ملحد، وأنا أصدقك فيما تقول.

إنّك تُؤمِن، في جزء من عقلك بعدم وجود القدير، لكنّني بدأت أشكّ في أنّ جزءاً آخر من عقلك يُؤمِن حقّاً بوجود قوة خارقة خطيرة تسفك الدماء».

كان شكّي في محلّه. فقد أخذ (ستيوارت) يُدرِك – على مضض وهو يغالب نفسه، بصورة تدريجية، بينما كنّا نعمل معاً – أنّه يَدين في أعماقه بمعتقد يتصف بالغرابة والبشاعة، يتمثَّل في افتراضه بما يتجاوز نطاق إلحاده، أنّ قوة حاقدة تُسيطِر على العالم وتُوجِّهه، وأنّه لا يمكنها أن تذبحه فحسب، بل تتوق لذلك أيضاً؛ عقاباً له على ما يرتكبه من آثام. بدأنا ببطء أيضاً التركيزَ على (آثامه) التي تتجسَّد غالباً في حوادث جنسية بسيطة، ترمز إليها (القبلة التي استرقها) من ابنة مدير المحطة.

أصبح واضحاً – في نهاية المطاف – أنّ (ستيوارت) كان يُكفِّر عن آثامه، و(يذبح) نفسه رمزيّاً (بما يُمثِّل سبباً، من بين أسباب أُخرى، لاكتئابه) على أمل أن يمنع القوة الخارقة، عبر القيام بذلك، من ذبحه بصورة فعلية.

من أين أتت فكرة ستيوارت بخصوص القوة الخارقة الشريرة والعالم الحاقد؟ كيف تتطوّر معتقدات الناس؟ ما الذي يُحدِّد نظرة الشخص إلى العالم بصورة معينة؟ يوجد الكثير من المُحدِّدات المعقّدة لذلك، ولن يختبر هذا الكتاب هذه المسألة بعمق. يتمثَّل العامل الأكثر أهمية – بصورة واضحة، فيما يتعلّق بتطوّر معتقدات معظم الناس – في ثقافتهم. فلو كنّا أوروبيين لاعتقدنا على الأرجح، أنّ المسيح رجل أبيض، ولو كنّا إفريقيين لاعتقدنا أنّه أسود، ولو كان المرء هنديّاً، بحيث وُلِد وترعرع في بينارس أو بومباي، لأصبح على الأرجح، هندوسيّاً، ونظر إلى العالم – كما ذكرنا آنفاً – بصورة متشائمة. أمّا إذا كان المرء أمريكيّاً، بحيث وُلِد وترعرع في إنديانا، فسيصبح على الأرجح أيضاً، مسيحيّاً بما يفوق إمكانية اعتناقه الهندوسية، وسينظر إلى العالم بصورة أكثر تفاؤلاً إلى حدٍّ ما. وبذا، فإنّنا ننزع إلى الاعتقاد بما يعتقده الناس من حولنا، ونتقبَّل ما يقولونه لنا عن طبيعة العالم، – بوصفها حقائق – بينما نصغي إليهم في سنوات نشوئنا.

أمّا ما هو أقلّ وضوحاً للناس فيتمثَّل، في الأحوال كلّها (باستثناء المعالجين النفسيين) في حقيقة أنّ الجزء الأكثر أهمية من ثقافتنا يكمن في عائلتنا. تتمثَّل الثقافة الرئيسة التي نتطوّر عن طريقها، في ثقافة عائلتنا التي يُعدّ والدونا المُوجِّهين لها. ولا يتمحور الجانب الأكثر أهمية من تلك الثقافة حول ما يقوله لنا والدونا عن الخالق وطبيعة الأشياء، إنّما يتمحور حول ما يقومون به بالأحرى (كيفية تصرُّف بعضهم مع بعض، ومع أشقائنا، والأهم من ذلك كله معنا). وبكلمات أُخرى، فإنّ ما نتعلَّمه عن طبيعة العالم حين ننمو، تُحدِّده الطبيعة الفعلية لتجربتنا في العالم المصغَّر لعائلتنا. لذا، لا تتحدَّد نظرتنا إلى العالم عبر ما يقوله والدونا بقدر ما تتحدَّد عبر العالم المتفرِّد الذي يوجدونه لنا، ويتشكَّل استناداً إلى الطريقة التي يتصرَّفون بها.

خاطبني (ستيوارت) قائلاً: «أتفق معك على أنّ فكرة القوة الخارقة القاتلة هذه تسيطر عليَّ. ولكن، من أين أتت؟ فقد كان والداي يؤمنان بالله بالتأكيد - ويتحدثان عن ذلك بصورة متواصلة -، وهو إله محب في نظرهما. المسيح يحبنا، الله يحبنا، نحب الله والمسيح. المحبة، المحبة، المحبة، هذا ما كنت أسمعه على الدوام».

سألته قائلاً: «هل كنت تحظى بطفولة سعيدة؟».

رمقني (ستيوارت) بنظرة غاضبة، ثمّ أجاب قائلاً: «كُفَّ عن التظاهر بالجهالة، تعلم أنّني لم أحظَ بها، تعلم أنّها كانت بائسة».

«لماذا كانت بائسة؟».

«تعلم سبب ذلك أيضاً، تعلم كيف كانت طفولتي. لقد كنت أُضرَب بشدّة: بالأحزمة، وألواح الخشب، والمقشات، والفراشي، وأيّ شيء يمكن أن يقع في أيديهما. لم أكن أفعل شيئاً لا أُضرَب عليه؛ إذ يُعدّ الضرب بصورة يومية أمراً صحيّاً في نظرهما، وكان من شأنه أن يجعل منّي مسيحيّاً جيداً».

«هل هدَّدا، في أيٍّ من الأوقات، بشنقك أو ذبحك؟».

«لا، لكنّني واثق من أنّهما كانا سيفعلان ذلك لو لم أكن حذراً».

أطبق الصمت على المكان مدّة طويلة، وبدا الاكتئاب واضحاً جدّاً على (ستيوارت). وفي نهاية المطاف، تحدّث بصعوبة كبيرة، قائلاً: «لقد بدأت أفهم».

لم يكن (ستيوارت) الشخص الوحيد الذي يعتقد وجود ما بِتُّ أُسمّيه (القوة الخارقة المتوحشة). كان لديَّ عدد من المرضى ممّن يؤمنون بالصورة نفسها للقدير، ويعتنقون ما هو كئيب ومُروِّع من الأفكار - بصورة

مماثلة – عن طبيعة الوجود. يتمثَّل ما هو مفاجئ في أنّ فكرة وجود القوة الخارقة المتوحشة يمكن أن تتملَّك عدداً أكبر بكثير من الناس. وقد أشرنا، في القسم الأول من هذا الكتاب، إلى أنّ الوالِدينَ يُجسِّدون مُثُلاً عليا مطلقة أو قوى خارقة في نظرنا القاصر حين نكون أطفالاً، وأنّنا ننظر إلى الطريقة التي يُصرِّفون بها الأمور بوصفها الطريقة المثلى التي يجب على الناس كافة اتباعها في هذه الحياة.

إنّ فكرتنا الأولى (والوحيدة غالباً، بما يدعو إلى الحزن) عن طبيعة الخالق تُماثِل فكرتنا عن طبيعة والدينا، وصفات آبائنا وأمهاتنا، أو مَنْ يحلّ محلّهم. وإذا كنّا نحظى بوالِدينَ محبينَ متسامحينَ، فسنعتقد على الأرجح، بوجود قوة خارقة محبة متسامحة على حدٍّ سواء، وسيُشكِّل العالم في نظرنا بوصفنا بالغين – كما تبدو عليه الحال – مكاناً داعماً، استناداً إلى أنّنا كنّا نحظى بالدعم في طفولتنا. وفي المقابل، إذا كان والدونا قساة مُتشدِّدين، فسنكبر على الأرجح، ونحن نعتقد بوجود قوة خارقة متوحشة قاسية مُتشدِّدة بالصورة نفسها.

وفي حال فشلوا في الاهتمام بنا، فسننظر إلى العالم على الأرجح، بصورة مماثلة، بوصفه مكاناً لا يُظهِر الاهتمام بنا على حدٍّ سواء[1].

1) تكمن خلاصة طفولة المريض (غالباً، ولكن ليس دائماً)، وخلاصة نظرته إلى العالم، في (الذاكرة الأولى). وبناءً على ذلك، أسأل المرضى في كثير من الأوقات، قائلاً: «أخبروني عن الأمور المبكِّرة بقدر ما يمكنكم تذكُّرها». وقد يحتجون ويتذرّعون قائلين: إنّهم يعجزون عن القيام بذلك، أو إنّ قدرتهم محدودة في هذا الصدد. ومع ذلك، فإنّ أجوبتهم تتراوح – حين أدفعهم إلى تذكُّر ما أمكنهم – بين «حسناً، أذكر حين حملتني أمي إلى الخارج، بين ذراعيها، لتريني الغروب الجميل»، و«أذكر حين كنت جالساً على أرض المطبخ. كنت قد بلَلْتُ سروالي، وكانت أمي تقف أمامي وهي تُلوِّح بملعقة كبيرة في الهواء، وتصرخ عليَّ». لعلّ استحضار تلك الذكريات المبكِّرة بالقدر الأكبر – بما يُماثِل غالباً ظاهرة ذكريات الحجب – يتم بدقة؛ لأنّها ترمز بصورة محدَّدة إلى طبيعة الطفولة المبكِّرة للناس. لذا، لا يُعدّ مفاجئاً، انسجام تلك الذكريات المبكِّرة بالقدر الأكبر – في كثير من الأحيان – مع أعمق المشاعر التي تتملَّك المريض إزاء طبيعة الوجود.

إنّ الحقيقة المُتمثِّلة في أنّ معتقدنا أو نظرتنا إلى العالم تُحدِّدهما – بصورة أولية وكبيرة – تجربة طفولتنا المتفرِّدة، تجعلنا نواجه مباشرة مشكلة رئيسة تتمثَّل في العلاقة بين المعتقد والواقع، وهي تُمثِّل المشكلة نفسها التي تتعلّق بالعالم المجازي المصغَّر والعالم الواقعي الكبير.

كانت نظرة (ستيوارت) إلى العالم – بوصفه مكاناً خطراً، قد يُذبَح فيه ما لم يكن شديد الحذر– واقعية تماماً، استناداً إلى علاقته بالعالم المصغَّر المُتمثِّل في منزل طفولته، حيث عاش في ظل هيمنة بالغيْنِ مُتشدِّديْنِ إلى أبعد الحدود. ومع ذلك، لا يُعدّ الوالدون والبالغون كافة مُتشدِّدين؛ إذ يوجد في العالم الواقعي الأكبر أصناف عدة مختلفة من الوالِدينَ، والأشخاص، والمجتمعات، والثقافات.

لذا، فإنّ تطوير ما هو واقعي من المعتقدات أو النظرات إلى العالم – الذي يتوافق مع واقع الكون ودورنا فيه، بأفضل ما يمكننا تعرُّف ذلك الواقع – يتطلَّب منّا تعديل فهمنا وإثراءه، بصورة متواصلة، كي يستوعب ما هو جديد من المعرفة بالعالم الأكبر. يجب علينا أيضاً أن نُطوِّر دائماً نظرتنا إلى العالم. يُذكَر أنّنا نتعامل هنا مع المسائل المتعلقة بوضع الخرائط والتحوُّلات، التي ناقشناها بصورة مطولة – إلى حدٍّ ما – في القسم الأول من الكتاب.

كانت خريطة (ستيوارت) للواقع دقيقة فيما يتعلّق بالعالم المصغَّر لعائلته، لكنّه حوّل تلك الخريطة بصورة غير ملائمة، بإسقاطها على عالم البالغينَ الأكبر، حيث كانت تفتقر إلى الكمال على نحوٍ لافت، وتتصف بالكثير من النقص. وفي واقع الأمر، فإنّ معتقدات معظم البالغين تُمثِّل – إلى حدٍّ ما – نتاجاً لما يقومون به من تحويل.

من جانب آخر، يتصرّف معظمنا في الحياة من منظور ضيِّق مقارنة بما يمكننا امتلاكه من وجهات نظر شاملة؛ ما يؤدي إلى فشلنا في تجاوز أثر ثقافتنا، ووالدينا، وتجربة طفولتنا، فيما نتمتع به من فهم. لذا، لا عجب من أن يسود عالم الإنسانية الكثير من النزاعات. فنحن نعيش في عالم يملك فيه الناس، الذين يجب عليهم التعامل مع بعضهم، آراء مختلفة جدّاً حيال طبيعة الواقع، ليعتقد كلّ منهم أنّ نظرته هي الصحيحة، استناداً إلى أنهّا تنبثق عن العالم المصغَّر لتجربته الشخصية.

لا يحيط معظمنا حتّى بنظرته إلى العالم، ما يزيد الطين بلّة، ناهيك عن مدى خصوصية التجربة التي تُستمَدّ تلك النظرة منها. وفي هذا السياق، عمل (برايانت ويدج)، الطبيب النفسي المتخصِّص في مجال العلاقات الدولية، على دراسة المفاوضات بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وقد تمكَّن من تحديد بعض الافتراضات الرئيسة – حيال طبيعة الناس، والمجتمع، والعالم – المتعلّقة بالأمريكيين، التي كانت تختلف بصورة مؤثِّرة عن افتراضات الروس. حدَّدت تلك الافتراضات سلوك كلٍّ من الطرفين في تلك المفاوضات. ولم يكن أيٌّ منهما – في الأحوال كلّها – محيطاً بافتراضاته، أو حقيقة أنّ الطرف الآخر يعمل على وَفق مجموعة مختلفة من الافتراضات. وقد تمثَّلت النتيجة الحتمية في أنّ سلوك الروس التفاوضي يبدو مجنوناً، أو شرّيراً بصورة متعمدة في نظر الأمريكيين، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأمريكيين، في نظر الروس بالطبع[1].

1) انظر:

Bryant Wedge and Cyril Muromcew, "Psychological Factors in Soviet Disarmament Negotiation," Journal of Conflict Resolution, 9, No. 1 (March 1965), 1836–.

انظر أيضاً:

(Bryant Wedge, "A Note on Soviet–American Negotiation," Proceedings of the Emergency Conference on Hostility, Aggression, and War, American Association for Social Psychiatry, Nov. 17–18, 1961)

ختاماً، يمكن تشبيه حالنا في هذه الحياة بحال العميان الثلاثة الوارد ذكرهم في المثل المعروف، الذين يُمسِك كلٌّ منهم بعضو من الفيل لا أكثر، لكنّه يزعم أنّه يحيط بطبيعة جسد الفيل برمّته. وبذا، فإنّنا نتنازع من جرّاء نظراتنا القاصرة المختلفة إلى العالم، ويُعِدّ كلٌّ منّا حربه مقدَّسة على الآخر.

معتقد العلم

يُمثِّل النموّ الروحي رحلة من العالم المجازي المصغَّر إلى العالم الواقعي الأشمل في الأوقات جميعاً. وتُعدّ تلك الرحلة، في مراحلها الأولى (وهو ما يهتم به هذا الكتاب إجمالاً) رحلةً للمعرفة لا الإيمان. لذا، يجب علينا أن (نتعلّم) إذا أردنا أن نترك العالم المصغَّر لتجربتنا السابقة، ونُحرِّر أنفسنا من عملية التحويل. يجب علينا أيضاً أن نُوسِّع عالمنا المعرفي ومجال رؤيتنا دائماً، بالاستيعاب الشامل لما هو جديد من المعطيات، وقد تناول الكتاب هذا الجانب، وأفرد له ما يستحق من الصفحات والاهتمام.

سنذكر مُجدَّداً تعريف المحبة الذي أشرنا إليه في القسم السابق، بأنّه توسيع حدود ذاتنا، وكذا الإشارة إلى أنّ أحد أخطار المحبة يكمن في الانتقال إلى المجهول المُتمثِّل فيما هو جديد من التجارب. أشرنا أيضاً في نهاية القسم الأول إلى الانضباط، وإلى أنّ تعلُّم الأشياء الجديدة يستلزم التخلّي عن الذات القديمة، وزوال المعرفة البالية، وأنّه يجب علينا، كي نُطوِّر رؤية أشمل، أن نكون مستعدين للتخلّي عن منظورنا الضيق، وأن ننبذه. ويُعدّ مريحاً - بصورة أكبر، على المدى القصير - ألّا نقوم بذلك، وأن نبقى حيث نحن، ونواصل اتباع خريطة العالم المصغَّر نفسها، ونتجنَّب المعاناة الناتجة عن ترك المعتقدات الأثيرة لدينا.

ity, Aggression, and War, American Association for Social Psychiatry, Nov. 17–18, 1961.

يقع طريق النموّ الروحي في الاتجاه المعاكس، حيث نبدأ – عن طريق التشكيك فيما نعتقده في السابق – إلتماس ما هو مهدّد وغير مألوف، ونطعن – عن عمد – في صحة ما تعلَّمناه في السابق، ونعدّه أثيراً لدينا. لذا، فإنّ الطريق إلى القداسة يمر عبر التشكيك في كلّ شيء.

يمكن أن نبدأ حقّاً بالعلم، وباستبدال معتقد العلم بمعتقد والدينا. ويجب علينا أن نتمرَّد على معتقد والدينا ونرفضه؛ جرّاء نظرتهم الضيّقة – حتماً – إلى العالم مقارنةً بما يمكننا امتلاكه من وجهات نظر أكثر شمولاً، لو استفدنا بصورة كلّية من تجربتنا الشخصية، بما في ذلك تجربتنا بوصفنا بالغين، وتجربة أحد الأجيال الإضافية في التاريخ البشري؛ إذ لا يوجد ما يمكن أن يُعدّ معتقداً جيداً بالوراثة. وكي يكون معتقدنا فاعلاً، ويُمثِّل أفضل ما يمكن أن نعتنقه؛ يجب أن يكون شخصيّاً بالكامل، ومصوغاً تماماً عبر تساؤلنا وتشكيكنا في خضمّ تجربتنا الخاصة في الواقع. وكما قال اللاهوتي آلان جونز:

> «تتمثَّل واحدة من مشكلاتنا في أنّ قلّة منّا قد طوّرت حياة شخصية مُميَّزة بأيٍّ من الأشكال. ويبدو أنّ كلّ ما يتعلّق بنا هو منقول عن الآخرين، بما في ذلك عواطفنا. لذا، يجب علينا – في كثير من الحالات – أن نعتمد على ما هو منقول من المعطيات لكي نعمل في الحياة. أتقبّل ما يقوله الأطباء، والعلماء، والمزارعون بلا مناقشة. ومع أنّني لا أحب فعل ذلك، إلّا أنّني مضطر إليه؛ لأنّ هؤلاء يملكون معرفة أساسية بالحياة لا أُحيط بها. يمكنني أن أتعايش مع ما هو منقول من المعطيات عن حالة كليتي، وآثار الكوليسترول، وتربية الدجاج. لكنّ المعطيات المنقولة لا تفي بالغرض، حين تتعلّق بالمسائل المتمحورة حول الأمور ذات المغزى، والغرض من الحياة، والموت. لذا، لا يمكنني أن أستمر في هذه الحياة معتمداً على ما هو منقول من المعتقدات للإيمان بما يُصوِّره

لي الآخرون من القوى الخارقة. وتبعاً لذلك، يجب أن تكون لي كلمتي، وأن أخوض مواجهتي المتفرِّدة، إن أردت أن أكون حيّاً»[1].

واستناداً إلى ما سبق، ينبغي لنا أن نُطوِّر معتقداتنا الخاصة، وألّا نتكل على معتقدات والدينا؛ كي نتمكَّن من المحافظة على صحتنا النفسية، ونموّنا الروحي. ولكن، ماذا بشأن المسألة المتعلقة (بمعتقد العلم)، بالنظر إلى كلّ ما سبق؟

يُعَدُّ العلم معتقداً؛ لأنّه يُمثِّل نظرة إلى العالم تتسم بقدر كبير من التعقيد، وتتضمّن عدداً من العقائد الرئيسة، التي يتجسَّد معظمها في الآتي:

- الاعتقاد أنّ الكون حقيقي، وأنّه صالح للاختبار.
- التأكيد على الفوائد الجمّة التي سيجنيها الناس، في حال اختبارهم الكون.
- انسجام الكون مع المنطق؛ أي سيره على وَفق قوانين معينة، وإمكانية التنبُّؤ بما يدور فيه.

ولسوء الطالع، فإنّ الناس يفتقرون إلى المهارة في الاختبار، ويؤمنون بالخرافات، ويتصف سلوكهم بالتحيُّز والتحامل، وينزعون بشدّة إلى رؤية ما يودّون رؤيته، لا ما يحدث حقيقة. وفي حال أرادوا أن يختبروا ويفهموا بدقة، وجب عليهم أن يُخضِعوا أنفسهم لما تتسم به الطريقة العلمية من انضباط. ويتمثَّل جوهر هذا الانضباط في التجربة؛ إذ لا يمكن تعرُّف شيء ما، من دون اختباره بصورة فعلية. وفي الوقت الذي يبدأ فيه انضباط الطريقة العلمية بالتجربة، فإنّه لا يمكن الوثوق بما هو منفرد من التجارب، ويجب أن تكون مُتكرِّرة كي يتم الوثوق بها، وأن تكون على صورة

1) Journey Into Christ (New York: Seabury Press, 1977), pp. 91–92

سلسلة من التجارب. ويجب أن تكون قابلة للإثبات، بحيث يمكن للآخرين إجراء التجارب نفسها في ظروف مماثلة.

تتمثَّل الكلمات الرئيسة هنا في (الواقع)، و(الاختبار)، و(المعرفة)، و(التشكيك)، و(التجربة)، و(الانضباط)، وقد كنّا نستخدم تلك الكلمات بصورة متواصلة في المراحل السابقة جميعاً. وبينما يُمثِّل العلم معتقداً للتشكيك، يجب علينا ترك العالم المصغَّر لتجربة طفولتنا، ولثقافتنا وعقائدها، والتخلّي عن أنصاف الحقائق التي نقلها والدونا؛ وذلك بأن نكون مشكِّكين فيما نعتقد أنّنا تعلَّمناه حتى الآن. فالموقف العلمي سيساعدنا بالتأكيد على تحويل تجربتنا الشخصية المتصلة بالعالم المجازي المصغَّر إلى تجربة شخصية ذات صلة بالعالم الواقعي الكبير. لذا، يجب علينا أن نبدأ العمل بتبنّي موقف العلماء.

يخاطبني الكثير من المرضى، الذين يعتقدون أنّهم بدؤوا بذلك بصورة فعلية، قائلين: «نحن لسنا متدينين. لا نذهب إلى الكنيسة. لم نعد نؤمن بالكثير ممّا تعلَّمناه في الكنيسة، ومن والدينا. لا نعتنق معتقد والدينا. لا نعتقد أنّنا روحانيون إلى حدٍّ بعيد». يشعر أولئك بالصدمة غالباً حين أُشكِّك في واقعية افتراضهم أنّهم ليسوا روحانيين. لذا، يمكن أن أخاطبهم قائلاً: «أنتم تعتنقون مذهباً فاعلاً بصورة ما، إنّكم تَدينون بالحقيقة، وتؤمنون بإمكانية نموّكم وتطوّركم؛ إمكانية التقدُّم على الصعيد الروحي. وتملكون الاستعداد - لقوة إيمانكم - للمعاناة من تبعات التحديات وآلام التخلّي عن معتقداتكم القديمة. إنّكم تخاطرون بالخضوع للعلاج، وتفعلون ذلك كلّه لأجل معتقدكم. لست متأكِّداً من واقعية أن يقال إنّكم أقلّ روحانية من والديكم، بل إخال، وعلى النقيض من ذلك، أنّ الحقيقة تكمن في أنّكم تطوّرتم روحيّاً، وأنّكم روحانيون، بما يفوق والديكم كثيراً، لدرجة أنّهم لا يملكون الشجاعة للتشكيك بكم».

يتمثَّل واحد من الأمور التي تشير إلى أنّ العلم – بوصفه معتقداً – يُسهِم في التقدُّم، ويُشكِّل قفزة تطوّرية، بما يفوق عدداً من المعتقدات الأُخرى؛ في طابعه الدولي. وبطبيعة الحال، فنحن نتحدّث هنا عن المجتمع العلمي العالمي. فقد بدأ هذا المجتمع بالتحوُّل إلى مجتمع حقيقي بالمعنى الملموس، والتماسك بما يفوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حدٍّ بعيد، بما يجعله الأقرب على وجه الاحتمال، إلى أخوية دولية حقيقية. أضف إلى ذلك، أنّ العلماء من شتى البقاع يملكون القدرة – بما يفوق معظمنا بصورة كبيرة – على التحدّث إلى بعضهم، وقد نجحوا – إلى حدٍّ ما – في تجاوز العالم المصغَّر لثقافتهم، وامتلاك ما هو فعلي من الحكمة.

أُؤكِّد على قول «إلى حدٍّ ما» فيما سبق. وفي حين أعتقد أنّ النظرة المُشكِّكة من العقلية العلمية تُمثِّل تطوّراً بارزاً يتجاوز النظرة الدينية العمياء، المستندة إلى الخرافات، وما هو غير مختبر من الافتراضات؛ فإنّني أعتقد أيضاً أنّ معظم مَنْ يتمتعون بعقليات علمية قد بدؤوا رحلة النموّ الروحي وما كاوا يبدؤون، وأنّ نظرتهم، على وجه الخصوص، إلى حقيقة القدير ضيّقة على وجه التقريب بقدر نظرة القرويين البسطاء الذين يعتنقون، بصورة عمياء، معتقد والديهم.

من جانب آخر، يواجه العلماء صعوبة بالغة في التعامل مع حقيقة القدير. وفي الوقت الذي لا نتأثّر فيه كثيراً حين ننظر – من موقع التشكيك المتطوّر الذي يمنحنا أفضلية – إلى ظاهرة الإيمان بوجود قوة خارقة مهيمنة؛ فإنّنا لا نرى سوى (الدوغماتية)، والحروب – انطلاقاً منها – ناهيك عن الملاحقات والمضايقات. لا نرى سوى النفاق: أُناس ينتمون إلى منظمات دينية، ويقتلون زملاءهم باسم الدين، ويملؤون جيوبهم على حساب الآخرين، ويعمدون إلى استخدام الطرائق الوحشية كلّها. وبذا، لا نرى إلّا ما يثير الحيرة من الطقوس والأيقونات الكثيرة التي لا تحظى

بإجماع الناس، لا نرى سوى الجهالة، والخرافة، والتشدُّد. ومن ثَمَّ، يبدو تاريخ الإيمان بوجود قوة خارقة مهيمنة، مُفتقِراً إلى الكثير من الغنى.

من المغري الاعتقاد أنّ الإنسانية قد تكون أفضل حالاً من دون الإيمان بوجود قوة خارقة مهيمنة، وقد يكون منطقيّاً استنتاج أنّ وجود تلك القوة يُمثِّل وهماً في عقول الناس (وهماً مُدمِّراً)، وأنّ الإيمان بوجودها يُمثِّل نمطاً شائعاً من الأمراض النفسية البشرية التي يجدر علاجها.

واستناداً إلى ما سبق، فقد يتبادر إلى الروع الكثير من الأسئلة، من مثل: هل يُعدّ الإيمان بوجود قوة خارقة مهيمنة مرضاً؟ هل يُمثِّل ذلك مظهراً للتحويل مفهوما لوالدينا، استُمِدّ من العالم المجازي المصغر، وأُسقِط بصورة غير ملائمة على العالم الواقعي الكبير؟ وبعبارة أُخرى، هل يُمثِّل ذلك الإيمان نمطاً من التفكير البدائي أو الطفولي الذي يجب علينا تجاوزه في نموّنا، في حين نسعى إلى بلوغ مستويات أعلى من الوعي والنضج؟

إذا أردنا أن نكون علميين في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، فيجب التحوُّل إلى الحقيقة المستمدة من المعطيات السريرية الفعلية. وتبعاً لذلك، ماذا يحدث لإيمان المرء بوجود قوة خارقة مهيمنة، في حين ينمو عن طريق عملية العلاج النفسي؟

حالة كاثي

كانت (كاثي) أكثر الأشخاص المرتعبين الذين رأيتهم في حياتي؛ إذ كانت تجلس على الأرض قرب الزاوية، حين دخلت غرفتها أوّل مرّة، وتُدندِن بأنشودتها.

نظرت إليَّ، في حين كنت أقف عند الباب، وقد نَمَّتْ نظرتها عن شعورها بالكثير من الخوف؛ إذ أخذت تنتحب وتدفع نفسها إلى الخلف باتجاه الزاوية، ليلتصق جسدها بالجدار، وتواصل دفعه بهذا الاتجاه، كأنّها ترغب في اختراق الجدار. خاطبتها قائلاً: «(كاثي)، أنا طبيبٌ نفسِيٌّ. لن أُؤذيك». ثمّ جلبْتُ كرسيّاً، لأجلس على مسافة منها، وأنتظر. لكنّها واصلت دفع نفسها باتجاه الزاوية دقيقة أخرى، قبل أن تسترخي قليلاً، لتأخذ في البكاء بما يعجز المرء عن تهدئتها. وبعد مدّة قصيرة توقّفت عن البكاء، ثمّ أخذت تُتمتِم مُجدَّداً بأنشودة لنفسها. سألتها عن الخطب الذي تشكو منه، فتوقّفَتْ هُنيهة عن تلاوة أنشودتها، وردَّتْ عليَّ من دون تفكير، قائلةً: «سأموت». لم يكن لديها المزيد لتخبرني به. ثمّ تابعت تلاوة أنشودتها، لتتوقّف عن ذلك كلّ خمس دقائق على وجه التقريب - بعد أن يصيبها الإجهاد -، وتنتحب بضع لحظات قبل أن تواصل تلاوة الأنشودة مُجدَّداً. كانت تجيبني عن أيّ سؤال أطرحه عليها بالإجابة نفسها، «سأموت»، كأنّها تحرص على عدم الإخلال بإيقاع أنشودتها. كانت تشعر بأنّه يمكن لها أن تحول دون موتها عن طريق الاستمرار بإنشاد تلك الأنشودة، ناهيك عن عدم السماح لنفسها بأخذ قسط من الراحة أو النوم.

حصلت (كاثي) على الحدّ الأدنى من المعطيات من زوجها الشاب (هاورد)، الذي يعمل شرطيّاً. وكانت قد بلغت العشرين من العمر، واقترنت به منذ عامين. لم يواجها أيّ مشكلات في زواجهما، وكانت (كاثي) قريبة من والديها، ولم تتعرَّض لأيّ مشكلة نفسية جدّية من قبلُ. وقد مثَّل ذلك مفاجأة كبيرة بالنسبة إليَّ. كانت (كاثي) على خير ما يرام في صبيحة ذلك اليوم، وقد أوصلت زوجها إلى عمله. ثمّ اتصلت به أخته بعد ساعتين، حيث ذهبت لزيارة (كاثي)، ووجدتها في تلك الحالة، فسارعا بنقلها إلى المستشفى. أخبرني زوجها بأنّها لم تكن تتصرَّف بغرابة حديثاً، باستثناء أمر واحد على وجه الاحتمال؛ إذ كانت تخاف كثيراً - منذ أربعة أشهر

تقريباً - من الذهاب إلى الأماكن العامة. عمل (هاورد) على مساعدتها بالتسوُّق في المتجر، في حين تنتظره في السيارة. كانت تخاف أيضاً - كما يبدو- من أن تُترَك وحدها. كانت تصلي كثيراً، ولكنّها كانت تفعل ذلك على الدوام منذ عرفها. فقد كانت عائلتها متدينة جدّاً. وقد اعتادت أمها الذهاب إلى القدّاس مرّتين أسبوعيّاً على أقلّ تقدير. وما إن تزوجت (كاثي) بهاورد حتّى توقّفت عن حضور القدّاس، بما يلفت النظر.

لم يكن (هاورد) يرى ضيراً في ذلك، مع أنّها أخذت تلتزم بالصلاة كثيراً في مختلف الأحوال. سألته عن صحتها الجسدية، فأجابني بأنّها ممتازة. لم يسبق لـ(كاثي) قطُّ أن أُدخِلت المستشفى، وإن كان قد أُغمِي عليها مرّةً في عرس منذ بضع سنوات. سألته عمّا إذا كانت تأخذ موانع للحمل، فأجابني بالإيجاب، وبأنّها أخبرته - منذ شهر تقريباً - أنّها ستتوقّف عن القيام بذلك. وكانت قد قرأت عن موانع الحمل، وما تُمثِّله من خطر على الجسم أو ما شابه. إلّا أنّ زوجها لم يُلقِ بالاً بذلك.

أعطيت (كاثي) كمية كبيرة من المهدّئات والمسكّنات لكي تتمكّن من النوم مساءً، ولكنّ سلوكها استمرّ على حاله في اليومين اللاحقتين: ترتيل الأناشيد بصورة متواصلة، وعدم القدرة على التعبير عن أيّ شيء باستثناء قناعتها أنّها ستموت قريباً، والشعور الدائم بالخوف. عمدت أخيراً، في اليوم الرابع، إلى إعطائها (الصوديوم أميتال) عن طريق حقنة وريدية، ثمّ خاطبتها، قائلاً: «ستجعلك هذه الحقنة تشعرين بالنعاس يا (كاثي)، لكنّك لن تنامي، ولن تموتي. ستجعلك قادرة على التوقّف عن تلاوة الأناشيد. وستشعرين بالكثير من الاسترخاء، وستتمكنين من التحدّث إليَّ. أودّ أن تخبريني بما حدث في صباح اليوم الذي أتيت فيه إلى المستشفى».

أجابتني، قائلة: «لَمْ يحدث شيء».

– «هل أوصلت زوجك إلى عمله؟».

– «أجل، ثمّ عدت إلى المنزل، ثمّ علمت أنّني سأموت».

– «عدت إلى المنزل كما تفعلين تماماً كلّ صباح، بعد أن توصلي زوجك إلى عمله؟».

بدأت (كاثي) تُردِّد الأنشودة مُجدَّداً.

خاطبتها بلغة آمرة، قائلاً: «توقّفي عن ذلك يا (كاثي). أنتِ بأمان تام الآن، وتشعرين بالكثير من الاسترخاء. لقد حدث شيء ما في أثناء عودتك إلى المنزل في ذلك الصباح. ستخبرينني عنه».

«سلكت طريقاً مختلفاً».

«لِمَ فعلت ذلك؟».

«سلكت الطريق الذي يمرّ بمنزل بيل».

سألتها قائلاً: «مَنْ بيل؟».

أخذت كاثي تُتمتِم بأنشودتها مُجدَّداً.

«هل هو صديقك الحميم؟».

«كان كذلك قبل أن أتزوج».

–«تفتقدين إلى بيل كثيراً، أليس كذلك؟».

أخذت كاثي تنتحب، قائلةً: «آه، يا إلهي! سأموت».

«هل رأيت بيل في ذلك اليوم؟».

– «لا».

obeikandl.com

– «ولكنّك أردت رؤيته؟».

أجابتني كاثي، قائلةً: «سأموت».

– «هل تعتقدين أنّ القدير سيعاقبك؛ لرغبتك في رؤية بيل مرّة أُخرى؟».

– «أجل».

– «هل هذا هو سبب اعتقادك أنّك ستموتين؟».

أجابتني (كاثي)، بعد أن بدأت ترتيل أنشودتها مُجدَّداً، قائلةً: «أجل».

تركتها تفعل ذلك عشر دقائق، في حين عملت على استجماع أفكاري.

أخيراً، خاطبتها قائلاً: «تعتقدين يا (كاثي) أنّك ستموتين؛ لأنّك تظنين أنّك تعرفين القدير. ولكنّك مخطئة في ذلك؛ لأنّك لا تعرفين القدير حقّاً. يتمثَّل كلّ ما تعرفينه عن القدير فيما قيل لك عنه، وهو غير صحيح في جزء كبير منه. لا أعرف كلّ شيء عن القدير، لكنّني أعرف عنه أكثر منك، وممّن أخبروك عنه. أرى كلّ يوم – على سبيل المثال – رجالاً ونساءً أمثالك، ممّن يُفكِّرون في الخيانة، ويقعون فيها فعلاً، لكنّ القدير لا يُعاقِبهم. أعرف ذلك جيداً؛ لأنّهم يعودون باستمرار لرؤيتي، والتحدّث إليَّ، ثمّ يصبحون أكثر سعادة، كما ستصبحين أنتِ تماماً؛ لأنّنا سنعمل معاً، وستدركين أنّك لست شخصاً سيئاً، وستدركين الحقيقة التي تتعلّق بك وبالقدير. ستصبحين أكثر سعادة في حياتك، لكنّك ستخلدين إلى النوم الآن، ولن تشعري بالخوف مُجدَّداً حين تستيقظين، من أنّك ستموتين، وستتمكَّنين من التحدّث إليَّ، حين ترينني غداً في الصباح مرة أخرى، وسنتحدث عن القدير وعنك».

تحسَّنت حالة (كاثي) في الصباح. وكانت لا تزال تشعر بالخوف، وغير مقتنعة أنّها لن تموت، لكنّها – في المقابل – لم تعد متيقنة من ذلك. ثمّ أخذت قصتها تتكشَّف ببطء، شيئاً فشيئاً، في ذلك اليوم، وفي الكثير من الأيام اللاحقة. وقد تَبيَّن أنّها أقامت علاقة جنسية مع (هاورد) في سنتها الأخيرة في المدرسة الثانوية، ثمّ رغب في أن يتزوجها، وكان له ما أراد.

بعد مضيّ أسبوعين، وبينما كانت (كاثي) تحضر عرساً لصديقة، خطر على بالها فجأةً فكرة، تمثَّلت في عدم رغبتها في الزواج، ليغمى عليها من جرّاء ذلك. وفيما بعد، شعرت بعدم اليقين، وبدت مرتبكة بخصوص محبتها لِـ (هاورد)، لكنّها شعرت بأنّه يجب عليها الاقتران به لعلمها أنّها ارتكبت خطيئة حقّاً بإقامتها علاقة به خارج إطار الزواج، وأنّه لا يمكن التكفير عن تلك الخطيئة إلّا بجعل علاقتهما شرعية عن طريق الزواج. لم تكن ترغب في إنجاب الأطفال من (هاورد) إلى أن تتيقن من محبتها له على أقلّ تقدير. فبدأت تأخذ موانع الحمل، وهو ما مثَّل خطيئة أُخرى في نظرها. لم تكن قادرة بأيٍّ من الأشكال، على الإقرار بارتكاب تلك الخطايا، وقد شعرت بالراحة لتوقُّفها عن حضور القدّاس بعد زواجها. كانت تستمتع بممارسة الجنس مع (هاورد)، الذي فقد اهتمامه بها جنسيّاً، مع ذلك، منذ يوم زفافهما على وجه التقريب. وقد عمل الرجل بصورة مثالية على تلبية حاجاتها، فكان يشتري لها الهدايا، وأظهر الاهتمام بها، وعمل وقتاً إضافيّاً طويلاً ليريحها من عبء العمل في أيّ وظيفة. ومع ذلك، كادت (كاثي) تتوسَّل إليه ليمارس معها الجنس، ولم يُسهِم القيام بذلك كلّ أسبوعين، إلّا في التقليل من شعورها الدائم بالضجر لا أكثر. كان الطلاق خياراً مستبعداً، ويُمثِّل خطيئة أخرى، ولا يمكن التفكير فيه بحسب اعتقادها.

أخذت الأفكار تراود (كاثي) - رَغماً عنها- لخيانة زوجها. شعرت بأنّها يمكن أن تتخلَّص منها إن أكثرت من الصلاة، لتعمد للقيام بذلك خمس دقائق كلّ ساعة. وقد استرعى ذلك انتباه (هاورد)، الذي لم يتوانَ عن السخرية منها. فقرَّرت (كاثي) أن تخفي صلاتها عنه، بالإكثار منها نهاراً حين لا يكون في المنزل، مُعوِّضةً بذلك الصلوات التي اضطرت إلى عدم أدائها مساءً في حضرته. وقد تطلّب ذلك منها أن تصلّي وقتاً أطول، أو أن تصلّي بصورة أسرع. إلّا أنّها قرَّرت القيام بالأمرين معاً، فأخذت تصلّي كلّ نصف ساعة، وتُضاعِف سرعتها في صلاتها التي تدوم خمس دقائق. استمرّت أفكار الخيانة في مراودتها، لتزداد في وتيرتها وإلحاحها بصورة تدريجية. كانت تنظر إلى الرجال كلّما غادرت المنزل، ليزيد ذلك الأمور سوءاً. ثمّ أصبحت تخاف الخروج برفقة (هاورد)، وكانت تخاف من الأماكن العامة - حتى حين تكون برفقته - حيث يمكن أن ترى الرجال. اعتقدت أنّه ربّما كان يجب عليها أن تعود إلى الكنيسة؛ كي تُدرِك أنّ قيامها بذلك يعني ارتكابها خطيئة إضافية إذا لم تُصرِّح للكاهن بما يراودها من أفكار عن الخيانة.

لم يكن بإمكانها القيام بذلك، فعمدت مُجدَّداً إلى مضاعفة سرعتها في الصلاة. ثمّ بدأت العمل على وَفق طريقة تُمثِّل فيها مقاطع التراتيل المفردة صلوات برمّتها، وقد شكَّل ذلك الأساس لترتيلها الأناشيد بصورة متواصلة، ومكَّنها - بعد مدّة - من ترتيل ألف صلاة في غضون خمس دقائق. بدا لها أنّ أفكار الخيانة أخذت تتلاشى - في بادئ الأمر -، في حين أنّها كانت مشغولة جدّاً في وضع نظامها الخاص بالترتيل، لتعود تلك الأفكار بكامل قوتها ما إن انتهت من ذلك، فبدأت (كاثي) تُفكِّر بصورة فعلية، في كيفية تنفيذها. فكَّرت في الاتصال بـ(بيل)، صديقها الحميم السابق. فكَّرت في الذهاب إلى الحانات في الأماسي. ثمّ عمدت - فيما بعد؛ مخافة قيامها بذلك حقّاً - إلى التوقُّف عن أخذ موانع الحمل، على

أملاً أن يساعدها الخوف من الحمل على مقاومة تلك الأفكار. ولكنّ رغبتها ازدادت قوة، لتدفعها بعد ظهيرة أحد الأيام إلى ممارسة العادة السرية. أصابها ذلك بالرعب، استناداً إلى أنّه يُمثِّل أكبر الخطايا. وكانت قد سمعت أنّ الاستحمام بالمياه الباردة يفيد في منع القيام بذلك، فعمدت إلى الاستحمام بما أمكنها احتمال برودته من الماء. وقد ساعدها ذلك إلى أن عاد (هاورد) إلى المنزل، لكنّها شعرت بالرغبة نفسها مُجدَّداً في اليوم اللاحق.

وفي نهاية المطاف، استسلمت (كاثي) لتلك الأفكار ذلك الصباح. فعمدت، بعد إيصال (هاورد) إلى عمله، إلى التوجُّه نحو منزل (بيل) مباشرة. ثمّ أوقفت سيارتها أمام منزله تماماً وانتظرت. ولكن، لم يحدث أيّ شيء؛ إذ لم يكن أحد في المنزل على الأغلب. فخرجت من السيارة، واتكأت عليها، مُتَّخِذَةً وضعية مغوية. ثمّ توسَّلت إلى القدير بصمت، قائلةً: «أرجوك، أرجوك، دع (بيل) يراني، دعه يلحظني». لم يحدث أيّ شيء، فأردفت قائلةً: «أرجوك دع أحداً ما يراني، أيّ أحد. يجب أن أُعاشِر أحداً ما. آه، يا إلهي، أنا عاهرة، أنا عاهرة بابل. آه، أيّها القدير، اقتلني، يجب أن أموت». بعد ذلك، سارعت (كاثي) إلى ركوب السيارة، واندفعت باتجاه المنزل. وحين وصلت، أخذت شفرة للحلاقة، وحاولت قطع معصمها. ولمّا عجزت عن القيام بذلك، أدركت أنّ الله قادر عليه، وأنّه سيقوم به. سينزل بها الله ما تستحقه. سيضع حدّاً لأفعالها الآثمة، وينهي حياتها. فلتبدأ التراتيل بلا توقُّف: «آه، يا إلهي، أنا خائفة جدّاً، خائفة جدّاً، عَجِّل أرجوك، أنا خائفة جدّاً». واصلت (كاثي) القيام بذلك، منتظرة تنفيذ حكم القدير فيها، لتدخل عليها أخت زوجها، وتجدها في تلك الحالة.

لم تَبُحْ (كاثي) بتلك القصة كلها إلّا بعد أشهر من العمل الجاد. وقد تمحور الكثير من ذلك العمل حول مفهوم الخطيئة.

ولكن، من أين استقت (كاثي) معطياتها بأنّ ممارسة العادة السرية تُمثِّل خطيئة؟ مَنْ أخبرها بذلك؟ كيف علم مَنْ أخبرها بذلك أنّ ممارسة تلك العادة تُمثِّل خطيئة؟ ما الذي يجعل ممارسة تلك العادة خطيئة؟ ما الذي يجعل الخيانة، من وجهة نظري، خطيئة؟ ما الذي يتسبَّب في الخطايا؟

لا أعلم بوجود ما يتسم بقدر أكبر من الإثارة والغنى من ممارسة العلاج النفسي، ولكنّه قد يكون طويلاً ومُضنِياً أحياناً؛ لأنّه يستلزم تغييراً ممنهجاً للمواقف التي يُكوِّنها المريض طوال حياته بتفاصيلها جميعاً. وقد يُسهِم ذلك التغيير - في الأحوال كلّها غالباً، وبصورة جزئية على أقلّ تقدير - في تقدُّم علاج المريض، قبل أن تتكشَّف قصته كلها. لم تتمكَّن (كاثي) من إخباري بالكثير من تلك التفاصيل، مثل تفكيرها بالخيانة وممارستها العادة السرية، إلّا بعد أن بدأت في التشكيك في حقيقة أنّها كانت مذنبة، وفي نظرتها إلى تلك الأفعال بوصفها تُمثِّل خطايا. كان من الضروري أيضاً أن تُشكِّك في سلطة الكنيسة الكاثوليكية برمّتها، وصحة ما تقوله تلك الكنيسة، أو في تجربتها الخاصة مع الكنيسة على أقلّ تقدير.

لا يمكن للمرء أن يعارض الكنيسة الكاثوليكية بسهولة، إلّا أنّ (كاثي) تمكَّنت من عمل ذلك؛ لأنّها وجدت فيَّ حليفاً قويّاً لها، ولأنَّها شعرت تدريجيّاً أنّني أقف في صفها حقّاً، وأهتم بمصلحتها فعلاً، وأنّه لا يمكن أن أدفعها إلى القيام بما يضرّ بها. إنّ ذلك (الائتلاف في العلاج)، الذي ترسَّخ بيننا بصورة بطيئة، يُمثِّل متطلّباً أساسيّاً لنجاح عمليات العلاج النفسي الرئيسة جميعاً.

أُنجِز الكثير من العمل، في خضمّ علاج (كاثي)، بوصفها مريضة خارجية. وقد سُمِحَ لها بمغادرة المستشفى بعد أسبوع من الحوار الذي أجريناه في أعقاب حقنها (بالصوديوم أميتال). ولكنّها لم تتمكَّن من

التحدُّث عن معتقداتها المتعلّقة بالخطيئة إلّا بعد مضي أربعة أشهر من العلاج المكثَّف؛ إذ قالت: «أعتقد أنّ الكنيسة الكاثوليكية خدعتني». ومع ذلك، بدأنا مرحلة جديدة من العلاج، وعمدنا إلى طرح الأسئلة الآتية: كيف حدث ذلك؟ لماذا سمحت لنفسها بأن تُخدَع بتلك المفاهيم؟ كيف عجزت عن التفكير جيداً في طبيعة معتقداتها، ولم تتحدَّ الكنيسة، بأيٍّ من الأشكال، حتى تلك اللحظة؟

خاطبتني (كاثي)، فيما يتعلّق بهذا الأمر، قائلةً: «ولكنّ أمي أخبرتني أنّه لا يجدر بي أن أُشكِّك في الكنيسة». لذا، بدأنا العمل على تحليل علاقة (كاثي) بوالديها. كانت علاقتها بوالدها منعدمة تقريباً، ولم تكن تتواصل معه بما يُذكَر.

اقتصر دور والدها على العمل لا أكثر، ولم يكن يعود إلى المنزل إلّا ليغفو على مقعده، حاملاً كأس الجعة بيده. كان ذلك يحدث في الأوقات كلّها عدا أماسي يوم الجمعة، حيث كان يغادر ليحتسي الجعة أيضاً. كانت الأم تدير شؤون العائلة وحدها، بحيث لم يكن أحد يتحدّاها أو يعارضها. ومع أنّها اتسمت بالطيبة، فإنّها كانت حازمة. كانت معطاءة، لكنّها لم تكن تُذعِن بأيٍّ من الأحوال. كانت مسالمة، لكنّها لم تكن متساهلة: «يجب ألّا تقومي بذلك يا عزيزتي. لا تقوم الفتيات الجيدات بذلك»، «لا يليق بك ارتداء هذا الزوج من الأحذية يا عزيزتي. لا ترتدي الفتيات من العائلات المحترمة تلك الأنواع من الأحذية»، «لا يتوقف الأمر على مدى رغبتك في حضور القدّاس يا عزيزتي. يأمرنا القدير بأن نفعل ذلك». أخذت (كاثي) تُدرِك، بصورة تدريجية، أنّ قوة الكنيسة الكاثوليكية تنبع من القوة الهائلة لأمها، التي كانت تُظهِر السيطرة بصورة لطيفة جدّاً، ولكنّها كلّية إلى أبعد الحدود، بما يجعل من المستحيل تحديها.

يندر أن يسير العلاج النفسي بسلاسة في الأحوال كلّها. فقد اتصل بي (هاورد) في صبيحة أحد أيام الآحاد، بعد ستة أشهر من مغادرتها المستشفى، ليخبرني أنّها أقفلت باب الحمّام على نفسها، وشرعت تُرتِّل الأناشيد مُجدَّداً. أقنعها زوجها بناءً على توجيهاتي، بالعودة إلى المستشفى، لألتقيهما هناك مرّة أُخرى. كانت (كاثي) خائفة بقدر ما رأيتها أوّل مرّة. لم يكن هاورد يملك أيّ فكرة، مُجدَّداً، عن سبب حدوث ذلك. استصحبت (كاثي) إلى غرفتها، ثمّ خاطبتها قائلاً: «توقّفي عن ترتيل الأناشيد، وأخبريني بما حدث».

«لا يمكنني القيام بذلك».

«بل يمكنك يا كاثي».

اقترحت عليَّ، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، قائلةً: «لربّما يمكنني القيام بذلك إن أعطيتني مصل الحقيقة مُجدَّداً».

قلت: «لا يا كاثي، إنّك تملكين ما يكفي من القوة هذه المرّة لتفعلي ذلك بنفسك».

انتحبت (كاثي) قليلاً، ثمّ نظرت إليَّ، وواصلت ترتيل أنشودتها. ولكنّني لمحت في نظرتها غضباً، بل حنقاً عليَّ.

قلت: «أنتِ غاضبة عليَّ».

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي تُرتِّل أنشودتها.

أردفت، قائلاً: «(كاثي)، يمكنني أن أُفكِّر في الكثير من الأسباب التي قد تدفعك إلى الغضب منّي. ولكن، لا يمكنني أن أعرف ما لم تخبريني. يمكنك أن تخبريني. سيكون الأمر على ما يرام».

obeikandi.com

أخذت تنوح قائلةً: «سأموت».

«لا، لن تموتي يا (كاثي). لن تموتي لأنّك غاضبة عليَّ. لن أقتلك لأنّك غاضبة عليَّ. لا ضير أبداً في أن تغضبي عليَّ».

واصلت نواحها قائلةً: «أيامي ليست طويلة، أيامي ليست طويلة».

بدت لي تلك الكلمات غريبة، ولم أتوقع سماعها منها. بدت غير طبيعية بطريقة ما. لم أكن متأكّداً - في الأحوال كلّها - ممّا يجب عليَّ قوله، فعمدت إلى تكرار نفسي بطريقة أو بأُخرى.

خاطبتها قائلاً: «أحبك يا (كاثي)، أحبك حتّى لو كنت تكرهينني. هذا ما تُمثِّله المحبة. كيف لي أن أُعاقِبك لأنّك تكرهينني، في الوقت الذي أحبك فيه؟».

أجابت وهي تنتحب: «لستَ مَنْ أكرهه».

أوحى ذلك إليَّ بشيء فجأةً، فخاطبتها قائلاً: «أيامك ليست طويلة. ليست طويلة على هذه الأرض، أليس الأمر كذلك يا (كاثي)؟ أكرمي أباك وأمك لتصبح أيامك طويلة على هذه الأرض، على وفق الوصية الخامسة، أو موتي. هذا ما يحدث، أليس كذلك؟».

تمتمت (كاثي)، في بادئ الأمر، قائلةً: «أكرهها»، ثمّ أخذت تتحدّث بصوت أعلى، كأنّها امتلكت الشجاعة اللازمة بعد أن نطقت تلك الكلمة المخيفة بالنسبة إليها: «أكرهها، أكره أمي، أكرهها. فهي لم تمنحني قطُّ... لم تمنحني قطُّ... لم تمنحني قطُّ شخصيتي. لم تفسح لي المجال على الإطلاق لأُكوِّن ذاتي. لقد جعلتني على صورتها. جعلتني كذلك، جعلتني كذلك، جعلتني كذلك. لم تفسح لي المجال قطُّ، بأيٍّ من الأشكال، لأُكوِّن ذاتي».

كان علاج (كاثي) لا يزال في مراحله الأولى. وكان علاج خوفها الحقيقي والواقعي لا يزال بانتظارنا، خوفها من أن تُكوِّن ذاتها بالكثير الكثير من الطرائق البسيطة. وجب على (كاثي) - بعد إدراكها حقيقة أنّ أمها قد هيمنت عليها بصورة كلّية - أن تتعامل مع السبب الذي جعلها تسمح بحدوث ذلك. فلو عملت على رفض تلك الهيمنة، لوجب عليها أن تُرسِي بنفسها قيمها الخاصة، وتتخذ قراراتها الخاصة، ولأنّها كانت تخاف ذلك كثيراً، فقد رأت أنّ من الآمن لها أن تترك اتخاذ القرارات لأمها، ومن الأسهل لها كثيراً أن تتبنى قيم أمها وقيم الكنيسة. استلزم الأمر الكثير من العمل الإضافي لكي تتمكَّن (كاثي) من إدارة وجودها المُميِّز لها. ثمّ تحدّثت، فيما بعد، قائلةً: «أشعر بسعادة كبيرة، في الحقيقة؛ لأنّني لم أعد الشخص ذاته الذي كنته فيما مضى، ولكنّني أَحِنّ إلى تلك الأيام أحياناً، حيث كانت حياتي تتسم بقدر أكبر من البساطة - بطريقة ما على الأقلّ - في حينه».

عمدت (كاثي)، التي بدأت تتصرَّف باستقلالية أكبر، إلى مواجهة زوجها بحقيقة فشله كعاشق لها. وعدها (هاورد) بأنّه سيتغيّر، ولكنّ شيئاً لم يحدث. ولمّا ألحَّت عليه (كاثي) في ذلك الصدد، اعترته نوبات قلق عدّة. أتى (هاورد) إليَّ بهدف معالجتها، فأشرت عليه بالذهاب إلى معالج نفسي آخر. بدأ الرجل يختبر مشاعر عميقة تتعلّق بالشذوذ الجنسي، التي كان قد تصدّى لها عبر زواجه بـ(كاثي). ولأنّ مظهرها كان جذاباً جدّاً، فقد عَدَّها (هاورد) مثل صيد ثمين له، وجائزة قيمة يمكن أن يثبت لنفسه وللعالم، عبر الفوز بها، أنّه كان طبيعيّاً من الناحية الجنسية. لم يُكِنّ الرجل لها يوماً مشاعر المحبة الحقيقية. وقد عمد (هاورد) و(كاثي)، بعد أن تقبّلا تلك الحقيقة، إلى الاتفاق بأكثر الطرائق ودية على الطلاق. بعد ذلك، شغلت (كاثي) وظيفة بائعة في متجر كبير للملابس، وكافحت معي كثيراً لتتمكَّن من اتخاذ الكثير من القرارات البسيطة - التي كانت تُؤكِّد

استقلاليتها- التي كان يجب عليها أن تتخذها فيما يتعلّق بعملها. أضحت (كاثي)، بصورة تدريجية أكثر ثقة بنفسها، فعمدت إلى مواعدة الكثير من الرجال؛ بهدف الزواج مرّة أُخرى وإنجاب الأطفال، مع استمتاعها - في الوقت نفسه - بعملها. وفيما بعدُ، عُيِّنت مساعدة لوكيل المشتريات في المتجر، وتم ترقيتها بصورة إضافية بعد إنهاء العلاج، ثمّ شغلت وظيفة وكيل المشتريات، وقد سمعت منها أخيراً أنّها انتقلت إلى شركة أكبر وشغلت الوظيفة نفسها، وأنّها تشعر الآن بالرضا التام عن نفسها وهي في سن السابعة والعشرين. لم تعد تذهب إلى الكنيسة على الإطلاق، أو تَعدّ نفسها كاثوليكية. لا تعرف على وجه اليقين أكانت تؤمن بالقدير، ولكنّها تقول بصراحة إنّ تلك المسألة لا تبدو مهمّة جدّاً في هذه المرحلة من حياتها.

تحدّثْتُ عن حالة (كاثي) بهذه الصورة المطولة؛ لأنّها تُعدّ، على وجه الدقة، مثالاً نموذجيّاً على العلاقة بين التربية الدينية والأمراض النفسية. وهناك أيضاً الملايين ممّن يعيشون حالة (كاثي). وقد اعتدت أن أقول للناس - على سبيل المزاح لا أكثر - إنّ الكنيسة الكاثوليكية هي مصدر رزقي الرئيس بوصفي طبيباً نفسيّاً. يمكنني أن أقول الأمر ذاته - بالتأكيد - عن الكنيسة المعمدانية، واللوثرية، والمشيخية، أو أيّ كنيسة أخرى. وبطبيعة الحال، لم تكن الكنيسة تُمثِّل السبب الوحيد لعصاب كاثي. بل يمكن القول إنّها كانت تُمثِّل - بطريقة ما - أداةً لا أكثر، وقد استخدمتها أم (كاثي)لتدعم وتزيد من سلطتها الكبيرة على ابنتها. يمكن للمرء أن يُشخِّص الحالة - إضافة إلى ذلك - بالقول إنّ طبيعة الأم المهيمنة، التي حرّضت بصورة إضافية من جرّاء غياب الأب، تُمثِّل السبب الرئيس لعصاب (كاثي). وقد تُعَدُّ حالة (كاثي) - فيما يتعلّق بذلك الصدد أيضاً - مثالاً نموذجيّاً على حدٍّ سواء. وعلى الرغم من ذلك كلّه، لا بُدَّ من تحميل الكنيسة جزءاً من المسؤولية.

وبوجهٍ عام، لم تعمد أيّ راهبة في مدرسة (كاثي) الأبرشية، أو أيّ كاهن في صفها الديني - في أيٍّ من الأوقات - إلى تشجيعها على البحث بصورة منطقية في العقيدة الدينية، أو استخدام عقلها بأيٍّ من الأشكال. ولم تُظهِر الكنيسة أيضاً أيّ اهتمام بخصوص عقيدتها، وهل كانت قد دُرِست بصورة غير صحيحة، أو أنّها تتسم بالتشدُّد بصورة غير واقعية، أو تُوظَّف وتُطبَّق بصورة غير سليمة.

تتمثَّل واحدة من الطرائق المنطقية لتحليل مشكلة (كاثي) في القول إنّها كانت تُؤمِن بصدق بالقدير، وبالأوامر والمفاهيم المتعلقة بالخطيئة، لكنّها اكتسبت معتقداتها وفهمها للعالم بالوراثة، وبطريقة غير ملائمة لحاجاتها. وقد فشلت - إضافة إلى ذلك - في التشكيك فيما كان يُلقَّن لها، وفي تحديه، واستخدام عقلها لفهم الأمور بنفسها، ولم تقم كنيستها - بما يُشكِّل مثالاً نموذجيّاً أيضاً- بأيٍّ من الجهود لمساعدتها على تطوير معتقد يتسم بقدر أكبر من الملاءمة والانفتاح. وبناءً على ذلك، يمكن القول إنّ الكنيسة تُفضِّل عموماً - كما تبدو عليه الحال - ما يتم توريثه وتلقينه - لا أكثر - من المعتقدات.

ولأنّ حالة (كاثي) تُعدّ مثالاً نموذجيّاً وشائعاً جدّاً، فإنّ الكثير من الأطباء والمعالجين النفسيين يرون في المعتقد العدو الرئيس لهم. فقد ينظرون إلى المعتقد حتى بوصفه عصاباً بحدّ ذاته (مجموعة من الأفكار اللاعقلانية بصورة متأصلة، تؤدي إلى تقييد عقول الناس، وكبت غريزتهم للنموّ على الصعيدين: العقلي، والنفسي). كان (فرويد)، العقلاني والعالم الأبرز، يرى الأمور بتلك الطريقة على وجه التقريب. ولأنّه يُعدّ أكثر الشخصيات تأثيراً في الطب النفسي الحديث (للكثير من الأسباب الوجيهة)، فإنّ مواقفه أسهمت في ترسيخ المفهوم الذي يرى في المعتقد نوعاً من العصاب.

يروق للأطباء النفسيين أن يروا في أنفسهم فرساناً للعلم الحديث، يقارعون في معركة نبيلة القوى الهدّامة للخرافات الدينية القديمة، والعقائد السلطوية اللاعقلانية. تتمثَّل الحقيقة - إضافة إلى ذلك - في أنّه يجب على المعالجين النفسيين بذل جهود كبيرة، وقضاء أوقات طويلة، في كفاحهم لتحرير عقول مرضاهم من المعتقدات والمفاهيم البالية، التي تُعدّ هدّامة بصورة واضحة.

حالة مارسيا

لا تُعدّ الحالات جميعها بصورة مطلقة، مماثلة لحالة (كاثي)؛ إذ يوجد الكثير من الأنماط الأُخرى التي يُعدّ بعضها شائعاً جدّاً أيضاً. تُمثِّل حالة (مارسيا) واحدة من أوائل الحالات التي عالجتها على المدى الطويل. كانت شابة ثرية جدّاً، في أواسط العشرينيات من العمر، قصدتني للعلاج من اضطراب (انعدام التلذُّذ) العام. لم تكن (مارسيا) تواجه أيّ صعوبات تُذكَر في حياتها، ولكنّ ذلك لم يَحُل دون شعورها بالاكتئاب بما لا يمكن تفسيره. ومما لاشك فيه أنها كانت تبدو مكتئبة. وعلى الرغم من ثرائها وتعليمها الجامعي، فقد كانت تبدو كامرأة مهاجرة، مسنّة، فقيرة، رثّة المظهر. اعتادت، طوال السنة الأولى من العلاج، أن ترتدي ما هو غير ملائم من الثياب، ذات الألوان الزرقاء، والرمادية، والسوداء، والبنية، وأن تحمل حقيبة كبيرة، قذرة، بالية، لونها غير متجانس أو زاهٍ. كانت الابنة الوحيدة لوالديْنِ مثقّفيْنِ، يُدرِّسان كلاهما في الجامعة، ويتسمان بالنجاح في العمل، ويعتنقان الفكر الاشتراكي بطريقة أو بأُخرى، ولا يُؤمِنان بالدين. كانا يسخران منها حينما كانت تذهب إلى الكنيسة - في مراهقتها - مع صديقة لها.

كانت (مارسيا) متفقة في توجُّهاتها مع والديها - في الأحوال كلّها - لحظة خضوعها للعلاج، وقد أعلمتني منذ البداية، بلهجة واضحة ومتفاخرة إلى حدٍّ ما، أنّها كانت ملحدة - بصورة حقيقية، لا شكلية - بحيث كانت تُؤمِن بأنّ الجنس البشري سيكون بحال أفضل لو تمكَّن -بحسب وجهة نظرها- من التخلُّص من الوهم المُتمثِّل في وجود القدير، أو حتّى إمكانية وجوده. كانت (مارسيا) تحلم - بما يثير الاهتمام - دائماً بما يرمز إلى الدين؛ كالطيور التي تُحلِّق في الغرف حاملةً بمناقيرها لفائف من الورق التي تحوي رسائل غامضة مكتوبة بلغة قديمة.

لم أعمد إلى مواجهتها بذلك الجانب من لا وعيها. لم نتعامل قطُّ مع المسائل المتعلّقة بالدين في أيٍّ من الأوقات، طوال مدّة علاجها التي استغرقت عامين. وقد تمثَّل ما ركَّزنا عليه مطولاً في علاقتها بوالديها؛ المثقّفيْن العقلانييْن بالقدر الأكبر، اللذيْن وفَّرا لها كلّ ما يلزم على الصعيد المادي، لكنّهما كانا بعيديْن عنها عاطفيّاً بتشدُّدهما الفكري. وقد كان كلٌّ منهما، إضافة إلى ذلك، منشغلاً جدّاً بعمله، بحيث لم يُكرِّس لها الكثير من الوقت أو الجهد.

تمثَّلت النتيجة في أنّها حظيت بمنزل فخم مريح، ولكنّها كانت مثالاً (للفتاة الثرية المسكينة) اليتيمة سيكولوجيّاً. قاومت (مارسيا) تلك النظرة طوال الوقت، وكانت تمتعض منّي عند إشارتي إلى أنّ والديها قد تسبَّبا بصورة رئيسة فيما تعانيه من حرمان، وأنّ مظهرها يُماثِل مظهر الأيتام. كانت تقول إنّ ذلك يُمثِّل النمط الجديد السائد للباس، وإنّه لا يحق لي أن أنتقده.

كان التقدُّم في علاج (مارسيا) بطيئاً بما هو مؤلم، ولكنّه كان مُؤثِّراً. وقد تمثَّل العامل الرئيس في ودية العلاقة وقوتها التي تمكّنّا من إقامتها تدريجيّاً، وكانت تُناقِض علاقتها بوالديها. في بداية عامها الثاني من

العلاج، أتت (مارسيا) إلى الجلسة، في صبيحة أحد الأيام، وهي تحمل حقيبة جديدة تزهو بألوانها، وتُعادِل في حجمها ثلث حقيبتها القديمة، لتقوم فيما بعدُ، مرّة كلّ شهر بإضافة قطعة جديدة من الثياب - ذات الألوان البرتقالية والصفراء الزاهية، والزرقاء والخضراء الفاتحة - إلى تشكيلتها، فتبدو كزهرة تتفتّح أوراقها ببطء. خاطبتني، قبيل انتهاء علاجها، من أجل التعبير عن الشعور الرائع الذي يتملَّكها، قائلةً: «يُعدّ هذا الأمر غريباً حقّاً؛ فالتغيير لم يقتصر على داخلي فحسب، بل يبدو أنّ كلّ ما يخرج عن نطاق ذاتي قد تغيَّر أيضاً. ومع أنّني ما أزال هنا، أعيش في المنزل القديم نفسه، وأقوم ببعض الأمور القديمة ذاتها، فإنّ العالم برمّته يبدو مختلفاً جدّاً، ويتملَّكني شعور مختلف تجاهه؛ إنّه ودود، وآمن، ومحب، ومثير، ورائع. أذكر أنّني قلت لك إنّني ملحدة. ولكن، لم أعد واثقة من أنّني ما زلت كذلك. لا أعتقد حقّاً أنّني ما أزال كذلك. أخاطب نفسي أحياناً؛ من جرّاء هذا الشعور الرائع الذي ينتابني تجاه العالم، قائلةً: «أراهن على أنّ القدير موجود في الحقيقة. لا أعتقد أنّ العالم يمكن أن يكون بهذه الروعةمن دون وجود القدير».

يُعدّ هذا الأمر غريباً فعلاً، وما زلت أجهل كيفية التحدُّث عنه. أشعر فقط بأنّني متواصلة مع العالم، وأنّني حقيقية، كأنّني جزء أصيل من لوحة كبيرة جدّاً. وعلى الرغم من أنّني أعجز عن رؤية تلك اللوحة بمجملها، فإنّني أعلم أنّها موجودة، وأنّها رائعة، وأنّني جزء منها».

انتقلت (كاثي)، عن طريق العلاج، من مرحلة كان مفهوم وجود القدير فيها مهمّاً جدّاً، إلى مرحلة أُخرى انعدمت فيها تلك الأهمية. وفي المقابل، انتقلت (مارسيا) من حالة الرفض لفكرة وجود القدير، إلى حالة أُخرى أصبحت فيها تلك الفكرة ذات مغزى كبير بالنسبة إليها. وفي كلتا الحالتين، كانت العملية واحدة، والمعالج واحداً، لكنّ النتائج كانت

متناقضة، واتّسمت – مع ذلك – بالنجاح في الأحوال كلّها. فكيف يمكن لنا تفسير ذلك؟

وجب على المعالج، في حالة (كاثي)، أن يتحدّى معتقداتها الدينية بقوة؛ لإحداث تغيير في مسار التقليل – بصورة كبيرة – من أثر فكرة وجود القدير في حياتها. وقد بدأت تلك الفكرة، في حالة (مارسيا)، في إحداث أثر متزايد في حياتها، من دون قيام المعالج على الإطلاق بتحدّي معتقداتها الدينية بأيٍّ من الأشكال. فهل يُعَدُّ ضرورياً – في مختلف الأوقات – قيام المعالج بتحدّي إلحاد أو لا أدرية المريض بقوة، والعمل بصورة متعمّدة على توجيهه نحو مسار التدين؟

حالة ثيودور

كان (تيد) في الثلاثين من العمر، ويعيش حالة من التنسُّك، حين أتى لرؤيتي. وقد عاش، طوال السنوات السبع الماضية، في كوخ صغير بالغابة، ولم يكن له الكثير من الأصدقاء، أو أيّ أحد مُقرَّب منهم، ولم يواعد النساء أيضاً مدّة ثلاث سنوات.

كان يقوم بأعمال النجارة البسيطة من حين إلى آخر، ويقضي معظم أيامه في صيد السمك، والقراءة، وإهدار الكثير من الوقت في اتخاذ ما هو غير مهم من القرارات، حيال ما يمكن طهوه طعاماً للعشاء، وطريقة إعداده، أو حيال مدى قدرته على ابتياع أداة بسيطة ما. كان الرجل ثريّاً جدّاً بعدما ورث مالاً كثيراً، وكان لامعاً فكريّاً. ومع ذلك، فقد وصف نفسه (بالمشلول) في الجلسة الأولى، واشتكى من ذلك قائلاً: «أعلم أنّه يجدر بي أن أقوم بما هو بنّاء ومبدع بصورة أكبر في حياتي، ولكنّني أعجز عن اتخاذ أبسط القرارات، ناهيك عن الكبيرة منها بالطبع. يجب أن أحظى بوظيفة ما، فضلاً على التخصّص في الجامعة لأتقن مجالاً ما، ولكنّني أفتقر إلى

الحماسة لأيّ شيء. ومع ذلك، فقد فكَّرت في كلّ شيء (التدريس، والعمل الأكاديمي، والعلاقات الدولية، والطب، والزراعة، وعلم الأحياء والبيئة)، ولكنّ شيئاً لم يثر اهتمامي حقّاً. لربّما اهتممت بمجال ما يوماً أو اثنين، لأكتشف فيما بعدُ أنّ المشكلات المتعلقة بهذا المجال عصية على الحلّ. إنّ الحياة برمّتها - كما تبدو عليه الحال - تُمثِّل مشكلة عصية على الحلّ».

بدأت مشكلة (تيد)، بحسب قوله، حين كان في سن الثامنة عشرة، بعد دخوله الجامعة. كان كلّ شيء على ما يرام إلى حينه. حظي (تيد) بطفولة اعتيادية ضمن عائلة ميسورة الحال ومستقرة، مع شقيقيْن يكبرانه في السنّ، ووالديْن يهتمان بأمره ولو لم يُظهِرا الاهتمام لبعضهما بعضاً كثيراً، ناهيك عن تحصيله درجات عالية في مدرسة داخلية خاصة. وقع (تيد) فيما بعد - لربّما كان ذلك هو الأهم - في غرام فتاة رفضته قبل أسبوع من دخوله الجامعة، ليقضي معظم عامه الدراسي الأول ثملاً من جرّاء شعوره بالاكتئاب. ومع ذلك، فقد استمر في تحصيل الدرجات العالية، ليدخل بعد ذلك في علاقات عاطفية عدّة أُخرى، ويفشل في كلٍّ منها بما لا يقلّ عن علاقته الأولى. عندئذٍ، أخذت درجاته تتدنى، وعجز عن تحديد ما هو مناسب من الكتب لكتابة البحوث. ولقي أيضاً أحد أصدقائه المقرَّبين يُدعى (هانك) مصرعه في حادث سيارة في منتصف العام الذي يفترض أن يسبق تخرّجه، لكنّه تمكَّن من تجاوز ذلك، وتوقّف عن الشرب حتّى في ذلك العام. وعلى الرغم من ذلك، أخذت مشكلته بخصوص اتخاذ القرارات تزداد سوءاً، حتّى عجز - بكلّ بساطة - عن تحديد موضوع أطروحته للتخرُّج. وكان قد أنهى عمله الفصلي، واستأجر غرفة خارج الجامعة، ولم يتبقّ له للتخرُّج سوى تقديم أطروحة قصيرة، وهو ما يمكن القيام به في شهر لا أكثر. لكنّه قضى السنوات الثلاث اللاحقة في محاولة تقديم تلك الأطروحة، ثمّ تخرَّج وهو عاجز عن تحقيق أيّ شيء، ليسكن الغابة - بالنتيجة - منذ سبع سنوات.

أدرك (تيد) أنّ مشكلته تتعلّق بالجانب الجنسي من حياته. ألم يبدأ مواجهة الصعوبات في حياته بصورة رئيسة، بعد فشل علاقته العاطفية الأولى؟ أضف إلى ذلك أنّه كان قد قرأ كلّ ما كتبه فرويد، على وجه التقريب (بأكثر ممّا فعلت إلى حدٍّ بعيد). لذا، عمدنا طوال الستة أشهر الأولى من العلاج، إلى سبر أغوار الجانب الجنسي من حياته حين كان طفلاً، ولم يوصلنا ذلك إلى شيء في الحقيقة. ومع ذلك، فقد تكشَّفت في تلك المدّة جوانب عدّة لافتة من شخصيته، تمثَّل أحدها في افتقاره التام إلى الحماسة. فقد يأمل أن يكون الطقس جيداً في يوم ما، ليهزّ كتفيه بلا مبالاة – إذا حدث ذلك حقّاً – قائلاً: «لا يُحدِث ذلك أيّ فرق في الحقيقة. لا يختلف أيّ يوم عن الآخر على الإطلاق».

أخبرني أنّه تمكَّن من الإمساك بسمكة ضخمة في أحد الأيام، حين كان يصيد السمك في البحيرة، ليردف قائلاً: «ولكنّها كانت تفوق في حجمها ما يمكن أن أتناوله، ولم يكن برفقتي مَنْ أقتسمها معه من الأصدقاء. لذا، عمدت إلى رميها في الماء مرّة أُخرى».

ارتبط افتقاره إلى الحماسة بنوع من التكبُّر، حيث اعتقد أنّ العالم رديء بكلّ ما فيه، وكان ينظر إليه بعين الناقد. وقد اشتبهت بأنّه يستخدم تكبُّره ذريعة كي يوجد مسافة بينه وبين الأمور التي قد تُؤثِّر فيه عاطفيّاً. كان (تيد) أيضاً ينزع بصورة كبيرة إلى التكتُّم، وهو ما جعل العلاج يسير ببطء شديد. وقد تعيَّن انتزاع الحقائق المهمة منه ما أمكن. ولعلّ قصة حلمه في المنام تُمثِّل خير شاهد على ذلك. يقول (تيد) في ذلك: «كنت في فصل دراسي. كان يوجد شيء – أجهل ماهيته – خبأته في صندوق. فعلت ذلك كي لا يعرف أحد ما هو ذلك الشيء. ثمّ أخفيت الصندوق في شجرة ميتة، وعملت على تغطيته ببراغٍ خشبية أنيقة. ولكنّني تذكَّرت فجأةً في أثناء جلوسي في الفصل، أنّني لم أكن متأكِّداً من إدخالي البراغي

جيداً في الصندوق. اعترتني حالة من القلق الشديد، فسارعت إلى الغابة، وعملت على إدخال البراغي جيداً في الصندوق، بحيث يعجز أيٌّ كان عن تمييزها منه. بعد ذلك، شعرت بالارتياح، وعدت إلى الفصل».

كما هي الحال بالنسبة إلى الكثير من الناس، فقد كان الفصل الدراسي يُمثِّل رمزاً للعلاج فيما يراه (تيد) من أحلام. كان من الواضح بالنسبة إليَّ - إضافة إلى ذلك - أنّه لا يرغب في أن أكتشف السبب الرئيس لعصابه.

تبدّى الصدع الصغير الأول في درع (تيد)، في إحدى الجلسات في الشهر السادس للعلاج. كان قد أمضى الأمسية السابقة في منزل أحد معارفه. وقد تذمَّر الرجل من ذلك، قائلاً: «كانت أمسية فظيعة. فقد أراد أن يسمعني الأسطوانة الجديدة التي ابتاعها، وتحوي ما غنّاه (نيل دايموند) في فيلم (جوناثن ليفينغستون سيغال). لم أطق ذلك في الحقيقة. لا أفهم كيف يمكن لأناس مثقّفين حقّاً أن يستمتعوا بسماع تلك الأشياء الرديئة، أو حتّى يُطلِقوا عليها اسم موسيقى».

لفتت حدّة ردِّه المتذمِّر انتباهي، فسألته: «تتمحور رواية ذلك الفيلم حول المعتقد، فهل كانت موسيقاه كذلك؟».

«أفترض أنّه يمكنك القول إنّها تتمحور حول المعتقد بقدر ما يمكنك تسميتها موسيقى».

عقبت قائلاً: «لربّما كان المضمون الديني هو ما أثار انزعاجك، لا الموسيقى بحدّ ذاتها».

أجابني (تيد) قائلاً: «حسناً، أجد ذلك النمط من المعتقدات مثيراً للاستياء بالتأكيد».

«وما ذلك النمط؟».

تحدّث (تيد) بتثاقُل، قائلاً: «عاطفي، بل مبالغ في العاطفية بما يثير الاشمئزاز».

- «ما النمط المقبول من المعتقدات، في رأيك؟».

بدا الإرباك والحيرة واضحيْنِ على مُحيّا (تيد)، ثمّ أجاب قائلاً: «لا يوجد نمط مقبول إلى حدٍّ كبير في اعتقادي. لا تجذبني مسألة المعتقد على وجه العموم».

«هل كانت كذلك دائماً؟».

ضحك تيد بصورة مصطنعة، ثمّ أجاب قائلاً: «لا، كنت مؤمناً بالمعتقد كثيراً حين كنت مراهقاً طائشاً؛ حتّى إنّني كنت شماس الكنيسة الصغيرة في المدرسة، في سنتي الأخيرة فيها».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«ما الذي تعنيه تحديداً؟».

«ماذا حدث بخصوص نظرتك إلى المعتقد؟».

«أظن أنّني تجاوزته في نموّي لا أكثر».

«كيف تجاوزته في نموّك؟».

بدا الضيق واضحاً على (تيد) في تلك اللحظة، ليسألني قائلاً: «ما الذي تعنيه بكيف تجاوزته في نموّي؟ كيف يتجاوز المرء أيّ شيء في نموّه؟ لقد فعلت ذلك فحسب، هذا كل ما في الأمر».

«متى تجاوزته في نموّك؟».

obeikandl.com

«لا أدري. حدث ذلك فحسب، كما أخبرتك توّاً. لم أذهب إلى الكنيسة مطلقاً في أثناء دراستي الجامعية».

«مطلقاً!». «مطلقاً! ولو حتى مرّة واحدة».

عقبت قائلاً: «كنت شماس الكنيسة إذن في سنتك الأخيرة بالمدرسة الثانوية، ثمّ دخلت في علاقة عاطفية فاشلة ذلك الصيف، لتمتنع عن الذهاب إلى الكنيسة بالمطلق فيما بعدُ. يُمثِّل ذلك تغيُّراً مفاجئاً. ألا تعتقد أنّ إعراض تلك الفتاة عنك له أيّ علاقة به؟».

«لا أعتقد أيّ شيء. فقد مَرّ الكثير من زملائي بالحالة نفسها في أثناء الدراسة. ثمّ دخلنا مرحلة البلوغ في وقت لم يُمثِّل فيه الإيمان بالمعتقد صرعة رائجة بعدُ. لربّما كان لتلك الفتاة علاقة بذلك، وربّما لم يكن لها أيّ علاقة بهذا الأمر. كيف لي أن أعرف؟ يتمثَّل كلّ ما أعرفه في أنّني لم أعد مهتمّاً بالمعتقد لا أكثر».

تبدّى الصدع اللاحق بعد مضيّ شهر تقريباً، في أثناء تركيزنا على ما كان جليّاً من افتقار (تيد) إلى الحماسة تجاه أيّ شيء، وهو ما أقرّ به بسهولة. تحدّث في هذا الصدد، قائلاً: «كانت المرّة الأخيرة التي شعرت فيها بالحماسة - حسبما أتذكّر بوضوح - قبل عشر سنوات، في السنة التي سبقت تخرُّجي، حين كنت أكتب بحثاً في نهاية فصل دراسي في الخريف، عن الشعر البريطاني الحديث».

سألته قائلاً: «عمَّن يدور موضوع البحث؟».

«لا أظن أنّ بإمكاني أن أتذكَّر حقيقةً، فقد كان ذلك منذ زمن طويل جدّاً».

عقبت قائلاً: «لا أُصدِّقك. يمكنك أن تتذكَّر إن أردت ذلك».

«حسناً، أعتقد أنّ له علاقة بِـ (جيرارد مانلي هوبكنز). كان واحداً من أوائل شعراء الحداثة الحقيقيين. كانت قصيدة (الجمال المزركش) – على الأرجح – هي ما ركَّز البحث عليه».

غادرت المكتب، مُتوجِّهاً إلى مكتبتي، لأعود بمجلّد ترب للشعر البريطاني، كنت أحتفظ به منذ أيام دراستي الجامعية. كان يحوي قصيدة (الجمال المزركش) في الصفحة 819. قرأت الأبيات الآتية منها:

يُعزى المجد إلى الله، إلى مخلوقاته المزركشة، إلى السماوات ذات اللونين كالأبقار المرقَّطة؛

إلى السمكة الزاهية بألوانها المنقَّطة وهي تسبح؛ إلى الكستناء الطازجة الساقطة من شجرتها كالفحم تحت النار ترزح؛ إلى جناحي العصفور؛ إلى الأراضي المخطَّطة

والمقسَّمة: مراع، حقول خاوية، وعامرة؛

إلى ما يعمله خلقه كافة، من صيد وإبحار

وحياكة، إلى كلّ ما هو متفرّد، أصيل، متوحد،

وغريب؛ إلى كلّ ما يتباين، تتماوج ألوانه (مَنْ

ذا الذي يدري كيف؟)؛ إلى كلّ ما هو سريع

وبطيء؛ حلو ومرّ؛ مشرق ومعتم؛

الله خالق كلّ ذلك ببهائه، لا يتغيَّر في

جماله؛ سبحانه جلّ جلاله.

اغرورقت عيناي بالدموع، ثمّ خاطبته قائلاً: «تُعدّ هذه القصيدة تحديداً مفعمة بالحماسة».

«أجل».

«وتتمحور أيضاً حول المعتقد بصورة كبيرة».

«أجل».

«كتبت بحثك عنها في نهاية الفصل الدراسي في الخريف؛ أي في يناير، أليس كذلك؟».

«بلى».

«إذا كانت حساباتي صحيحة، فقد توفي صديقك (هانك) في الشهر اللاحق (فبراير)، أليس كذلك؟».

«بلى».

شعرت بأنّ التوتر يسود الموقف بصورة كبيرة. لم أكن واثقاً من صحة أيّ عمل يمكن القيام به في حينه. أملت في أن تتمثَّل المقاربة الصحيحة في متابعة التحليل الذي كنت أقوم به، فخاطبته قائلاً: «إذن، صدَّتك أول امرأة أحببتها بصدق في سنّ السابعة عشرة، فتخلَّيت عن حماستك للكنيسة. وتوفي أعزّ صديق لك بعد ثلاث سنوات؛ ما دفعك إلى التخلّي عن حماستك بالمطلق».

عقب (تيد) بصوت أقرب إلى الصراخ، وكان التأثُّر بادياً على مُحيّاه بصورة لم ألحظها من قبلُ: «لم أتخلَّ عنها، بل انتُزِعت منِّي». «رفضك القدير، ومن ثمّ رفضت المعتقد».

سألني قائلاً: «حسناً، لماذا لا أفعل؟ إنّه عالم بائس. لطالما كان بائساً».

«اعتقدت أنَّ طفولتك كانت سعيدة جدّاً».

«لا، كانت بائسة حقّاً».

تلك إذن هي الحقيقة. فقد كان منزل (تيد) أيام الطفولة، مع ما يبدو عليه من هدوء في الظاهر، ساحة معركة حقيقية متواصلة بالنسبة

إليه. كان أخواه اللذان يكبرانه في السنّ يضايقانه بأكثر الأساليب إساءة. لم يقم والداه المشغولان جدّاً بشؤونهما الخاصة، واللذان حالت كراهيتهما لبعضهما بعضاً دون الالتفات إلى ما يبدو أنّه مشكلات بسيطة تصيب الأطفال، لم يقوما بتوفير الحماية له، بوصفه ابنهما الأصغر والأضعف.

تمكَّنْتُ في أثناء عملي مع (تيد) – على ضوء هروبه الطويل إلى الريف، حيث كانت النزهات التي يقوم بها وحده تُمثِّل عزاءه الوحيد – تمكَّنْتُ من اكتشاف أنّ ميله إلى التنسُّك يستمد جذوره من السنوات التي سبقت بلوغه سن العاشرة. كانت المدرسة الداخلية تُشكِّل ملاذاً آمناً له، بوصفها أقلّ سوءاً من بيته. ترسَّخ شعور (تيد) بالامتعاض من العالم – الذي كان يتخذه متنفَّساً بالأحرى – حينما كان يتحدّث عن تلك الأمور؛ حتّى إنّه لم يستحضر ما شعر به من ألم في أثناء طفولته وبعد وفاة (هانك) فحسب، بل استحضر الألم الناتج من حالات الرفض والفقدان الأُخرى الكثيرة. لم تُجسِّد الحياة برمّتها في نظره سوى دوّامة من المعاناة، والقسوة، والفقدان، وانعدام الأمن.

بعد مضيّ خمسة عشر شهراً من العلاج حدثت نقطة تحوُّل مهمة؛ إذ جلب (تيد) معه كتاباً صغيراً، في إحدى المرّات، ثمّ خاطبني قائلاً: «تتحدّث دائماً عن مدى تكتُّمي، وهذا صحيح بالطبع. كنت أُفتِّش في الليلة الماضية، في بعض أغراضي القديمة، وقد وجدت هذه المفكّرة التي أحتفظ بها منذ سنتي الثانية في الجامعة. لم أعمد إلى تنقيحها قطُّ، وظننت أنّك ربّما تود الاطلاع على (نسخة غير منقحة منّي) قبل عقد من الزمن.

أخبرته أنّني سأفعل، واطلعت عليها حقّاً في الليلتين القادمتين. لم تبح تلك المفكرة بما يذكر، في الحقيقة، لتُؤكِّد – في الأحوال كلّها – أنّه كان منعزلاً كثيراً في حينه. ولكن، لفت انتباهي تفصيل صغير فيها. فقد تحدّث (تيد) عن أنّه ذهب للتنزُّه وحده، في أحد أيام الآحاد، في شهر

يناير، وعَلِقَ فيما بعد وسط عاصفة ثلجية قوية، ليعود إلى مهجعه بعد ساعات عدّة في المساء: «شعرت بشيء من البهجة، حين عدت إلى الأمان الذي تُمثّله غرفتي، بما لا يختلف عن شعوري في الصيف الماضي حين كدت أن أموت». سألته، في اليوم الآتي - في أثناء جلستنا - أن يخبرني عن الكيفية التي كاد أن يموت بها. فأجابني قائلاً: «أوه، أخبرتك عن ذلك من قبلُ».

كنت قد علمت جيداً، بحلول ذلك الوقت، أنّ (تيد) يحاول أن يخفي عنّي شيئاً، كلّما زعم أنّه قد أخبرني عنه من قبلُ، فعقبت قائلاً: «ها أنت تتكتَّم مرة أخرى».

«حسناً، أنا واثق بأنّني قد أخبرتك. لا ريب في أنّني فعلت. لا تُعدّ قصة مهمّة على أيّ حالٍ. تذكر حين أخبرتك أنّني كنت أعمل في فلوريدا في ذلك الصيف، بين سنتي الأولى والثانية في الجامعة.

ضرب إعصار المدينة في حينه. ولأنّني أحب مراقبة العواصف، فقد ذهبت في أوج العاصفة إلى نهاية رصيف ممتد في البحر، لتقذفني موجة في الماء بعيداً عنه، وتعيديني أُخرى إليه. هذا كلّ ما حدث. انتهى الأمر سريعاً جدّاً».

وجدت صعوبة في تصديق روايته، فسألته قائلاً: «ذهبت إلى نهاية رصيف ممتد في البحر في أوج الإعصار!».

«أخبرتك أنّني أحب مراقبة العواصف. أردت أن ألمس غضب الطبيعة عن قرب».

- «يمكنني أن أتفهَّم ذلك. فأنا أحب مراقبة العواصف أيضاً، ولكنّني لست واثقاً أكنت سأُعرِّض نفسي للخطر بتلك الطريقة».

ردّ (تيد) بطريقة غير سوية تقريباً: «حسناً، تتملَّكني نزعة انتحارية في بعض الأحيان، وقد كانت تتملَّكني بلاشك، في ذلك الصيف. وقد عملت على تحليل الأمر في الحقيقة. لا أذكر، بصراحة، أنّني ذهبت إلى نهاية الرصيف بدافع من أيّ نية واعية للانتحار. ولكنّني لم أكن مكترثاً حقّاً بالحياة كثيراً في حينه، وأُقِرّ بأنّني ربّما فعلت ذلك بقصد الانتحار».

«هل قذفك الموج في الماء؟».

«أجل. أدركت في آخر لحظة ما كان يحدث. كان الرذاذ هائلاً بما يعجزك عن رؤية ما يذكر حقيقة. أعتقد أنّ موجة كبيرة قد أتت صوبي، ثمّ شعرت بها وهي تضربني، وتقذفني في الماء، ضائعاً في وسطه. لم يوجد ما يمكنني فعله لأنقذ نفسي. كنت واثقاً بأنّني سأموت، وقد أشعرني ذلك بالذعر. وبعد دقيقة تقريباً، وجدت نفسي أُقذَف في الاتجاه المقابل عن طريق الماء - لا ريب في أنّها كانت موجة معاكسة - لأصطدم، بعد مضيّ ثانية، بالجدار الأسمنتي للرصيف. توجَّهت بصعوبة إلى نهايته، ثمّ صعدت إليه ثانيةً، لأزحف ببطء إلى اليابسة. وقد تَبيَّن أنّني أُصِبت ببعض الكدمات. هذا كلّ ما حدث».

«ما شعورك إزاء هذه التجربة؟».

سألني (تيد)، بطريقته المقاومة، قائلاً: «ما الذي تعنيه بقولك: ما شعوري إزاءها؟».

«ما سألته لا أكثر. ما شعورك إزاءها؟».

- «هل تعني: ما شعوري إزاء نجاتي؟».

- «أجل». «حسناً، أعتقد أنّني كنت محظوظاً».

– «محظوظ؟ أي، هل كان مجيء الموجة لتدفعك إلى الرصيف مرة أخرى مجرّد مصادفة؟».

– «أجل، هذا كلّ ما في الأمر».

– «قد يدعو بعضهم ذلك معجزة».

– «أظنّ أنّني كنت محظوظاً».

كرَّرْتُ كلامه، بقصد إثارته، قائلاً: «تظنّ أنّك كنت محظوظاً».

ردَّ بحنق:«أجل، أظنّ أنّني كنت محظوظاً».

قلت: «هذا أمر مثير للاهتمام يا (تيد). فكلّما مررت بأمر مؤلم جدّاً لُمْتَ القدير، والعالم البائس التعس، ولكنّك تظنّ – في المقابل – أنّك محظوظ لا أكثر، حين يحدث أمر جيد لك. حين تصاب بأقلّ ما يمكن أن يوصف بالسوء تُسرِع إلى لوم القدير، وحين تُبارَك بما هو معجز من النعم تظنّ أنّك محظوظ لا أكثر. ألا يوحي إليك ذلك بشيء ما؟».

بدأ (تيد)، بعد مواجهته بتناقض موقفه تجاه ما يمكن عدّه حظّاً جيداً أو سيّئاً، بدأ بالتركيز بصورة متزايدة على ما هو جيد في العالم؛ على الحلو والمشرق، لا المرّ والمعتم فقط، وشرع في اختبار الوجه الآخر من عملة الحياة، بعد أن تعامل مع الألم الناتج من موت (هانك)، وغير ذلك من حالات الفقدان. بات أيضاً يتقبَّل ضرورة المعاناة، وتفهُّم الطبيعة المتناقضة للوجود، التي تشير إليها القصيدة. حدث ذلك، حقّاً، في خضمّ علاقتنا الودية، المحبة، الممتعة بصورة متزايدة. بعدئذٍ، أخذ الرجل يخرج من عزلته، ويواعد النساء مرة أخرى، مُتأنِّياً في ذلك كثيراً. وبدأ يُظهِر الحماسة للحياة إلى حدٍّ ما. أضف إلى ذلك، أنّ معتقده الديني أخذ يتطوّر، وبات يتأمّل – أينما نظر – في أحجية الحياة والموت، والخلق والفناء والبعث.

وشرع أيضاً في قراءة اللاهوت، والاستماع إلى الأغنيات الدينية، ناهيك عن ابتياعه نسخته الخاصة من فيلم (جوناثن ليفينغستون سيغال).

أبلغني (تيد) في صبيحة أحد الأيام، بعد مضيّ عامين من العلاج، أنّ الوقت قد حان ليكمل دراسته: «أُفكِّر في أن أتخصَّص في علم النفس. أعلم أنّك ستقول إنّني أحاول أن أُقلِّدك لا أكثر، ولكنّني نظرت في الأمر، ولا أعتقد أنّه كذلك».

- «تابع، أنا أستمع إليك».

- «حسناً، بدا لي، حين فكَّرت في ذلك، أنّه يجب عليَّ أن أحاول القيام بأكثر الأمور أهمية. وفي حال قُدِّر لي أن أعود إلى الجامعة، فإنّني أودّ أن أتخصَّص في أكثر المجالات أهمية».

- «تابع».

- «ثمّ وجدت أنّ العقل البشري مهم، وأنّ ممارسة العلاج النفسي مهمة أيضاً».

- «العقل البشري والعلاج النفسي هما الأكثر أهمية!».

- «حسناً، أعتقد أنّ القدير هو الأكثر أهمية».

- «إذن، لماذا لا تتمحور دراستك حول القدير؟».

- «ما الذي تعنيه؟».

- «لماذا لا تتمحور دراستك حول القدير، مع أنّه الأهم؟».

- «أنا آسف. أعجز عن فهمك ببساطة».

- «هذا لأنّك لا تريد أن تفهم».

- «أعجز عن فهمك حقّاً. كيف يمكن القيام بمثل تلك الدراسة؟».

- «يمكنك القيام بها في الجامعة، تماماً كما يُدرَّس علم النفس في الجامعة أيضاً».

- «تقصد كلية اللاهوت».

- «أجل».

- «وأن أصبح كاهناً».

- «أجل».

بدت تلك الفكرة صادمة بالنسبة إليه، فخاطبني قائلاً: «أوه، لا، لا يمكنني القيام بذلك».

«ولِمَ لا؟».

عمد (تيد) إلى المناورة في إجابته، قائلاً: «لا يوجد أيّ فرق بالضرورة بين المعالج النفسي والكاهن. يتمثَّل ما أعنيه في أنّ الكهنة يُضمِّنون أعمالهم الكثير من العلاج، وأنّ العلاج النفسي يُماثِل توجيه الرعية بالصورة نفسها».

«إذن، لماذا لا تصبح كاهناً؟».

أجابني (تيد) بغضب، قائلاً: «إنّك تضغط عليَّ. فاختيار أيّ مجال هو قرار شخصي، وأنا فقط مَنْ يُحدِّد ذلك. لا يفترض بالمعالجين أن يُسيِّروا المرضى ويتحكَّموا فيهم. لا تتمثَّل وظيفتك في تحديد الخيارات التي تناسبني؛ سأُحدِّد خياراتي بنفسي».

خاطبته قائلاً: «أصغِ إليَّ. أنا لا أُحدِّد أيَّ خيار لك، بل أُحلِّل الأمر لا أكثر في هذه الحالة، والبدائل المتاحة لك. أنتَ مَنْ لا يرغب - لسببٍ ما -

في النظر إلى واحدٍ من تلك البدائل. أنتَ مَنْ يرغب القيام بالأمر الأكثر أهمية. أنتَ مَنْ يعتقد أنّ القدير يُمثِّل الأمر الأكثر أهمية. ومع ذلك، فإنّك تقوم - حين أُوجِّهك إلى النظر في البديل المُتمثِّل في دراسة اللاهوت - باستبعاد ذلك البديل.

تقول إنّك عاجز عن القيام بذلك. لا مشكلة لديَّ فيما تقوله، ولكنّ وظيفتي تحتم عليَّ البحث عن السبب الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنك عاجز عن القيام بذلك، واستبعاده بوصفه واحداً من البدائل».

تحدّث (تيد) بطريقة أكثر هدوءاً، قائلاً: «لا يمكنني أن أصبح كاهناً فحسب».

«لِمَ لا؟».

«لأنّه... لأنّه يجب عليَّ، كي أصبح كاهناً، أن أجاهر بإيماني بالقدير، وأن أظهر حماستي للأمر علانيةً. لا يمكنني القيام بذلك فحسب».

- «يجب ألّا أن تكون مُتكتِّماً، أليس كذلك؟ هذا هو عصابك، ويجب أن تستبقيه. لا يمكنك أن تُظهِر الحماسة علانيةً. يجب أن تُبقي حماستك طيّ الكتمان، أليس كذلك؟».

قال (تيد)، وهو ينتحب: «لا يمكنك تخيُّل ما أشعر به إزاء ذلك. لا يمكنك تخيُّل ما يعنيه أن تكون محلّي. كلّما كنت أفتح فمي، لأُعبِّر عن حماستي لشيء ما، كان أخواي يسخران مني».

عقبت قائلاً: «إذن، أظنّ أنّك لا تزال في سن العاشرة، وأنّ أخويك لا يزالان بجانبك».

انفجر (تيد) بالبكاء في تلك اللحظة، بعد أن أثرت استياءه، ثمّ خاطبني قائلاً: «ليس هذا فقط. لقد عاقبني والداي بطريقة مماثلة أيضاً؛

فكلّما ارتكبت خطأً ما، كانا يحرمانني ممّا أحبه. ومن ذلك قولهما: «لنرَ، ما الذي يثير حماسة (تيد) كثيراً؟ أوه، أجل، الذهاب إلى منزل عمته في الأسبوع المقبل. يشعر (تيد) بالحماسة لذلك بصورة فعلية. سنخبره بأنّنا لن نسمح له بزيارة عمته لأنّه كان شقيّاً. ماذا بعدُ؟ أوه، قوسه وسهامه. إنّه يحب اللعب بقوسه وسهامه كثيراً. سنحرمه من ذلك أيضاً». لم يكن الأمر معقّداً قطُّ. فقد كانا يحرمانني، لا أكثر، من كلّ ما يثير حماستي. لذا، فقدت كلّ ما كنت أحبه».

بعد تمكّننا من اكتشاف المُسبِّب الأصيل لعصاب (تيد)، عمد بصورة تدريجية وبمحض إرادته - عبر تذكير نفسه دائماً أنّه لم يعد في سن العاشرة، أو تحت تأثير والديه، أو قرب أخويه - إلى إرغام نفسه على إظهار حماسته، ومحبته للحياة وللقدير، فضلاً على اتخاذه قراراً تمثَّل في رغبته الالتحاق بكلية اللاهوت.

قبل بضعة أسابيع من مغادرته، استلمت منه شيكاً بأجري عن الشهر السابق. وقد لفت انتباهي توقيعه على الشيك، حيث بدا أطول من المعتاد. أنعمت النظر فيه، لأجد أنّه بات يكتب اسمه (ثيودور)، بعد أن كان يكتبه دائماً (تيد) في السابق. وحين أخبرته عن ذلك التغيير، قال: «توقعت أنّك ستلاحظه. أظنّ أنّني لا أزال أحتفظ ببعض الأسرار بطريقة ما، أليس كذلك؟ أخبرتني عمتي، حين كنت صغيراً جدّاً، أنّه يجدر بي أن أفتخر باسم ثيودور لأنّه يعني (محب القدير). وقد شعرت بالفخار حقّاً، وأخبرت شقيقيَّ بذلك، لكنّهما سخرا منّي ونعتاني بِـ (المخنَّث) بصور مختلفة: (فتى الجوقة المخنَّث. لماذا لا تقبّل المذبح؟ لماذا لا تقبّل قائد الجوقة؟).

وفي هذه الأثناء، ابتسم (تيد)، ثمّ تابع حديثه قائلاً: «تعلم الوضع برمّته. فقد بتّ محرجاً من ذكر اسمي. ولكن، لأنّني لم أعد أشعر بالحرج

منه الآن، فقد وجدت أنّ من المناسب أن أستخدمه مرة أخرى. إنّه يعني (محب القدير) في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

الغثّ والسمين

أوردنا الحالات السابقة في معرض الإجابة عن السؤال الآتي: هل يُمثِّل الإيمان بالقدير نوعاً من المرض النفسي؟ يجب علينا طرح ذلك السؤال إذا أردنا أن نخرج من إطار ما تعلَّمناه في الطفولة، والخرافات والتقاليد. ومع ذلك، تُشير تلك الحالات إلى أنّ الإجابة عن السؤال المذكور آنفاً ليست سهلة. يمكن أن يكون الجواب بالإيجاب في بعض الأحيان؛ فقد أدّى إيمان (كاثي) الأعمى بالقدير وكنيستها وتعاليم أمها، إلى إعاقة نموّها بوضوح وتسميم روحها، ولم تتمكَّن من المضيّ قُدُماً في حياة تتسم بقدر أكبر من الحكمة، والإرضاء، والإنتاج، وامتلاك الحرية للنموّ؛ إلّا عن طريق التشكيك في معتقدها القديم ونبذه.

وبالمثل، فقد يكون الجواب بالنفي أحياناً. فبينما نمت (مارسيا) وخرجت من عالم طفولتها المصغَّر الخالي من المشاعر إلى عالم أكبر وأكثر ودية، كان الإيمان بالقدير ينمو في داخلها أيضاً، بصمت، وبصورة تلقائية. ووجب أيضاً إحياء إيمان (تيد) بالقدير؛ لأنّه يُشكِّل جزءاً أساسيّاً من تحرير روحه وإحيائها على حدٍّ سواء.

واستناداً إلى ما سبق، ما الذي يمكننا فعله حيال هذه الإجابة المزدوجة بالنفي والإيجاب؟ يُكرِّس العلماء أنفسهم لطرح الأسئلة بحثاً عن الحقيقة. ولكنّهم يظلّون بشراً في نهاية المطاف، ويودّون، كبقية البشر، أن تكون أجوبتهم واضحة وبسيطة.

ينزع العلماء، استناداً إلى رغبتهم فيما هو بسيط من الأجوبة، إلى الوقوع في شِرْكَيْنِ في أثناء بحثهم عن حقيقة القدير؛ أولهما: الخلط بين الغثّ والسمين. والثاني: الاتسام بضيق الأفق.

يحيط الكثير ممّا هو غث - بوضوح - بمفهوم حقيقة القدير، مثل: الحروب المقدّسة، ومحاكم التفتيش، والتضحية بالحيوانات، والتضحية بالبشر، والخرافات، والتسفيه، و(الدوغماتية)، والجهالة، والنفاق، والتحيُّز، والتشدُّد، والوحشية، وإحراق الكتب المخالفة، وإحراق المخالفينَ، والتحريم، والخوف، والتزمُّت، والذنب المرضي، والجنون. تطول اللائحة بلا نهاية على وجه التقريب. ولكن، هل القدير هو المسؤول عن ذلك كلّه، أم البشر؟ من الواضح أنّ الإيمان بالقدير يُمثِّل (دوغماتية) هدّامة في كثير من الأحيان. فهل تتمثَّل المشكلة في أنّ البشر ينزعون إلى الإيمان بالقدير، أم أنّهم ينزعون إلى أن يكونوا (دوغماتيين)؟ يمكن لأيّ إنسان يعرف ملحداً مُتمسِّكاً بقناعاته، أن يُدرِك أنّ ذلك الشخص قد يكون دوغماتيّاً في إلحاده على نحوٍ يُماثِل أيّ مؤمن في إيمانه. فهل يجب علينا نبذ الإيمان بالقدير، أم (الدوغماتية)؟

يتمثَّل سبب آخر - لنزوع العلماء بصورة كبيرة إلى الخلط بين الغثّ والسمين - في أنّ العلم يُمثِّل معتقداً بحدّ ذاته، كما أشرت سابقاً. فقد يكون العالِم المبتدئ - الذي تبنّى النظرة العلمية إلى العالَم حديثاً - مُتعصِّباً بقَدر، أيّ صليبيّاً. ينطبق الواقع على ذلك حين يأتي العلماء من بيئة يرتبط فيها الإيمان بالقدير - بقوة - بالجهل، والخرافة، والتشدُّد، والنفاق. لذا، تؤدي الدوافع العاطفية والفكرية إلى نبذ الفكر الديني. وتتمثَّل علامة نضج العلماء في إدراكهم أنّ العلم قد يكون دوغماتيّاً بقدر أيّ معتقد آخر.

كنت قد أكّدت من قبلُ أنّ نموّنا الروحي يتطلّب منّا تبنّي النهج العلمي والتشكيك فيما تعلَّمناه، وفي المفاهيم والمعتقدات الشائعة في ثقافتنا. ولكنّ المفاهيم العلمية نفسها تصبح غالباً (أوثاناً) ثقافية؛ ما يُحتم علينا أن نُشكِّك فيها أيضاً. يمكننا، في الحقيقة، أن ننضج لنتجاوز مسألة المعتقد، ولكنّني أودّ أن أُشير هنا إلى أنّه يمكننا بلوغ مرحلة النضج أيضاً لنصبح أكثر إيماناً بالقدير؛ إذ لا يُمثِّل ما هو مُشكِّك من الإلحاد أو اللاأدرية – بالضرورة – أسمى حالة من الفهم التي يمكن أن يبلغها الناس. وعلى النقيض من ذلك، يوجد من الأسباب ما يدفع إلى الاعتقاد أنه هناك حقيقة تكمن وراء المعتقدات الزائفة والمفاهيم المغلوطة بخصوص القدير، وأنّ تلك الحقيقة تشير إلى وجود القدير، مناقضة بذلك تلك المعتقدات والمفاهيم. يُمثِّل ذلك ما عناه (بول تيليك) حين أشار إلى (القدير ما وراء القدير)، ويُمثِّل أيضاً سبب قيام بعض المسيحيين المتفلسفين بالإشارة إلى أنّ وجود القدير ينبع من عدم وجوده. فهل يمكن للإنسان ترك الخرافة أوّلاً، في طريقه إلى النموّ الروحي، ليدخل في نطاق اللاأدرية، ثمّ يترك اللاأدرية نفسها، ليصل إلى معرفة حقيقية بالقدير؟ كان ذلك الطريق ما تحدّث عنه الصوفي (أبو سعيد بن أبي الخير)، منذ أكثر من تسعمئة عام، حين قال:

> ما لم تتداعَ المئذنة والجامعة، فإنّ عملنا المقدّس لن يتم.
> ما لم ينحُ المعتقد إلى الرفض، ويصبح الرفض هو الإيمان
> فلن يكون هناك مسلم حقيقي[1].

تتمثَّل الحقيقة، بغضّ النظر عمّا إذا كان طريق النموّ الروحي يؤدي – بالضرورة – من الإلحاد أو اللاأدرية المشكّكيْن إلى الإيمان الحقيقي بالقدير؛ تتمثَّل في أنّ بعض المثقّفين والمشكِّكين من الناس، من أمثال

1) مقتبس من:
Idries Shah, The Way of the Sufi (New York: Dutton paperback, 1970), p. 44.

(مارسيا) و(تيد)، ينمون حقّاً - كما تبدو عليه الحال - في اتجاه الإيمان بالقدير.

أضف إلى ذلك، أنّ هذا النوع من الإيمان يختلف اختلافاً كاملاً عن المعتقد الذي نبذته (كاثي) في النهاية؛ إذ يُسهِم التشكيك - إلى حدٍّ بعيد - في تغيير ما نعتنقه من معتقدات. وكما أشرت في بداية هذا القسم، فلا يوجد معتقد يُشكِّل منظومة متجانسة، بل توجد الكثير من المعتقدات، ومظاهر الإيمان على وجه الاحتمال. وقد يكون بعضها غير مناسب لفئة من الناس، خلافاً لمعتقدات أُخرى.

يجب على العلماء من الأطباء والمعالجين النفسيين إيلاء هذا الأمر أهمية كبيرة. فهم مطالَبون أكثر من أيّ شخص آخر، استناداً إلى أنّهم يتعاملون بصورة مباشرة مع عملية النمو، بالحكم على مدى سلامة المعتقدات التي يعتنقها الأفراد. ولأنّ المعالجين النفسيين يتبنّون ما هو مُشكِّك، إن لم يكن فرويديّاً بصورة مباشرة، من التقاليد، فإنّهم ينزعون إلى النظر إلى أيّ إيمان عاطفي بالقدير بوصفه مرضاً نفسيّاً. وقد يتجاوزون الحدود في نزعتهم تلك - من حين إلى آخر، ليصبحوا متحيِّزين ومتحاملين بوضوح.

التقيت قبل مدّة ليست بالطويلة، بطالبٍ في السنة الأخيرة في الجامعة، كان يُفكِّر بجدّ في إمكانية الالتحاق بأحد الأديرة. خضع هذا الطالب للعلاج النفسي منذ سنة، وقد أسرّ إليَّ في ذلك الصدد، قائلاً: «لم أكن قادراً على إخبار معالجي بأنّني أُفكِّر في الالتحاق بالدير، أو بمدى إيماني بالدين. لا أظن أنّه سيتفهم ذلك». لم أكن أعرف الشاب بما يكفي لأُقيِّم ما يعنيه الالتحاق بالدير بالنسبة إليه، أو هل رغبته في القيام بذلك نابعة من إصابته بالعصاب. وددت كثيراً أن أخاطبه، قائلاً: «يجب عليك حقيقةً أن تُخبِر معالجك بذلك. ومن الضروري لنجاح علاجك، أن تتحدّث

بصراحة عن الأمور كلّها، بما في ذلك هذه المسألة المهمّة تحديداً. يجدر بك أن تثق بأنّ معالجك سيكون موضوعيّاً». لكنّني لم أقل له ذلك حقيقةً؛ إذ لم أكن واثقاً على الإطلاق بأنّ معالجه سيتسم بالموضوعية، أو سيتفهم ما يقوله، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

من جانب آخر، قد تؤدي النظرة السطحية إلى المعتقد، من بعض الأطباء والمعالجين النفسيين، إلى الإضرار بعدد من مرضاهم. ينطبق ذلك على الواقع حين يَعُدّون المعتقد كلّه مفيداً أو سليماً، أو حين يخلطون بين ما هو غثّ وسمين في المعتقد، لينظروا إليه بمجمله بوصفه داءً أو عدوّاً لهم، أو حين يُحجِمون؛ هرباً من حالات مرضاهم المعقّدة، عن التعامل مع المسائل الدينية التي تتعلّق بهم، مختبئين وراء قناع الموضوعية، بصورتها الزائفة، التي تُحتم عليهم النأي بأنفسهم بصورة مطلقة – روحيّاً، أو دينيّاً – عن مرضاهم الذين يكونون في حاجة إلى تدخُّلهم غالباً.

لا أُلِّح في هذا الصدد، إلى أنّه يجدر بهم أن يتخلّوا عن الموضوعية بمعناها الحقيقي، أو إلى سهولة الموازنة بين الموضوعية والحالة الروحية. فهي ليست كذلك حقيقةً. لذا، لا أُطالِب المعالجين النفسيين كافة – بما أعنيه حقيقة – بالتدخُّل في حالات مرضاهم بما يتجاوز الحدود المقبولة، بل بالتعمُّق في المسائل الدينية المتعلّقة بأولئك المرضى بأكثر ممّا يفعلون عادةً.

النظرة العلمية الضيقة

يُعالِج الأطباء النفسيون – من حين إلى آخر – مرضى يعانون اضطراباً غريباً في الرؤية، بحيث لا يمكنهم سوى رؤية بقعة محدودة جدّاً أمامهم بصورة مباشرة. ومن ثَمَّ، فلا يمكنهم مشاهدة أيّ شيء يتجاوز بؤرة تركيزهم الضيقة، سواء إلى يسارها كان، أم يمينها، أم أعلاها،

أم أسفلها. ولا يمكنهم أيضاً رؤية شيئَيْنِ قريبيْنِ بعضهما من بعض في الوقت نفسه، إنّما شيء واحد لا أكثر؛ ما يُحتم عليهم تحريك رؤوسهم نحو الشيء الآخر إذا أرادوا رؤيته. يُشبِّه الأطباء ذلك العرض بالنظر في النفق، بحيث لا يمكنهم رؤية سوى دائرة صغيرة من الضوء في نهايته. لا يشكو أولئك من مرض في أعينهم يُسبِّب ذلك العَرَض. يبدو الأمر حقيقةً كأنّهم لا يودّون - لسبب ما - مشاهدة ما يخرج عن نطاق رؤيتهم بصورة مباشرة، وما يتجاوز البؤرة التي اختاروا التركيز عليها.

يتمثَّل سبب رئيس آخر، بصورة مماثلة، لنزعة العلماء إلى الخلط بين الغثّ والسمين، في أنّهم لا يرون السمين أساساً.

لا ينظر الكثير من العلماء ببساطة، إلى الأدلة المتعلّقة بحقيقة القدير. إنّهم يحملون النظرة الضيقة ذاتها، الناتجة عمّا حدَّدوا به رؤيتهم سيكولوجيّاً، ليحول دون توجيه انتباههم إلى عالم الروح.

أودّ مناقشة اثنين من مُسبِّبات هذه النظرة العلمية الضيقة، التي تُشكِّل نتاجاً للتقاليد والممارسات العلمية. يتمثَّل الأول في المنهجية التي يتبعها العلماء؛ إذ يُشدِّد العلم كثيراً - في إطار تأكيده الإيجابي على التجربة، والملاحظة الدقيقة، والأدلة - على مسألة القياس.

إنّ قياس شيء ما يعني تجربته ضمن بُعْد مُحدَّد يتيح لنا رصد ملاحظات دقيقة جدّاً، بحيث يمكن للآخرين تكرارها. ومع أنّ استخدام القياس في العلم يتيح القيام بخطوات عملاقة في اتجاه فهم الكون المادي، فإنّ القياس تحوَّل - بفضل ذلك ونجاحه - إلى ما يمكن عدّه (وثناً) علميّاً. وقد أفضى ذلك إلى موقف تبنّاه الكثير من العلماء، لا ينزع إلى التشكيك فيما لا يمكن قياسه فحسب، بل إلى الرفض التام له.

يبدو الأمر كأنّهم يقولون: «لا يمكننا الإحاطة بما لا يمكننا قياسه؛ لا طائل من أن نشغل أنفسنا بما لا يمكننا أن نحيط به؛ وهو ما يعني، أنّ ما لا يمكن قياسه لا يُشكِّل أهمية، ولا يستحق ملاحظتنا». يُحجِم الكثير من العلماء، من جرّاء ذلك الموقف، عن التفكير بجدّ في المسائل غير الملموسة جميعاً، أو تلك التي تبدو كذلك، بما يشمل حقّاً المسألة المتعلّقة بحقيقة القدير.

تعمد الكثير من التطوّرات الحديثة نسبيّاً في مجال العلم إلى تحدّي هذا الافتراض الغريب، الشائع بصورة لافتة، المُتمثِّل في أنّ ما لا تسهل دراسته لا يستحق الدراسة. يتمثَّل أحدها في وضع طرائق أكثر تطوّراً للدراسة. وقد بتنا الآن قادرين – عن طريق استخدام أجهزة، مثل: المجاهر الإلكترونية، وأجهزة المطياف الضوئي، والحواسيب. وبرمجيات مثل التقنيات الإحصائية – على إجراء القياسات لظواهر أكثر تعقيداً، كان قياسها قبل بضعة عقود أمراً صعب المنال. وبذا، فقد توسَّع مجال الرؤية العلمية، وربّما أمكننا قريباً، مع استمراره في التوسُّع، أن نقول: «لا يوجد ما يتجاوز نطاق رؤيتنا. وفي حال قرَّرنا دراسة شيء ما، فسيكون بإمكاننا دائماً إيجاد الطريقة المناسبة للقيام بذلك».

أمّا التطوّر الآخر الذي يتيح لنا التخلُّص من النظرة العلمية الضيقة، فيتمثَّل في اكتشاف العلم الحديث نسبيّاً حقيقةَ التناقض. كان التناقض مرادفاً للخطأ – قبل مئة سنة – في الذهنية العلمية. ولكنّ اكتشاف الكثير من الظواهر (مثل: طبيعة الضوء، والكهرومغناطيسية، والميكانيكا الكمية، والنظرية النسبية) أسهم في نضج العلم، على امتداد القرن المنصرم، بما يجعله يُقِرّ بصورة متزايدة بأنّ الحقيقة تُمثِّل مفارقة في جزءٍ منها.

كتب (جاى. روبرت أوبنهايمر)، في ذلك الصدد، قائلاً:

«ننزع، حين تُطرَح علينا أبسط الأسئلة كما تبدو، إلى عدم الإجابة عنها، أو الإجابة بما يُذكِّرنا أول وهلة بالكتب الدينية ذات الإجابات السلبية المختصرة، أكثر من الإجابات العلمية الإيجابية المباشرة. فلو سألنا مثلاً:

هل يبقى الإلكترون في الموقع نفسه؟
هل يتغيَّر موقع الإلكترون مع مرور الزمن؟
هل الإلكترون ساكن؟

هل الإلكترون متحرّك؟

لوجب أن نجيب بـ (لا) في الأحوال جميعها. لقد أعطى (بوذا) أجوبة مماثلة حينما سُئِل عن حال النفس بعد الموت؛ ولكنّها لم تكن أجوبة مألوفة للتقاليد العلمية التي كانت سائدة في القرنين: السابع عشر، والثامن عشر»[1].

حدّثنا الباطنيون، على مرّ العصور بلغة المفارقة. فهل يمكن أن نرى بداية تشكُّل أرضية مشتركة بين العلم والمعتقد؟ سنبدأ التحدُّث باللغة نفسها حين يكون بمقدورنا قول: «الإنسان فانٍ وخالد في الوقت ذاته»، و «الضوء يُشكِّل موجات وجزيئات في الوقت ذاته». هل يمكن لطريق النموّ الروحي، الذي يتجاوز الخرافات إلى التشكيك العلمي، أن يقودنا حقّاً، في نهاية المطاف، إلى حقيقة دينية أصيلة؟

إنّ بداية التوحيد المحتملة بين المعتقد والعلم، تُمثِّل الحدث الأهم والأكثر إثارة في حياتنا الفكرية اليوم. ولكنّها تُعدّ البداية لا أكثر؛ إذ سيبقى الديني والعلمي غالباً متخندقيْن وراء نظرتهما الضيقة، لتحدّ بصورة كبيرة من رؤيتهما للعالم. لنختبر، على سبيل المثال، توجُّه كلٍّ منهما فيما يتعلّق بمسألة المعجزات. تُعدّ فكرة المعجزات، بمفهومها الافتراضي، منبوذة من معظم العلماء. فقد نزع العلم طوال السنوات الأربعمئة السابقة أو ما يقارب ذلك، إلى توضيح عدد من (القوانين الطبيعية)، مثل: «يجذب

1) Science and the Common Understanding (New York: Simon and Schuster, 1953), p. 40

كلّ جسمين بعضهما بقوة تتناسب طرديّاً مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيّاً مع مربع المسافة بينهما»، أو «الطاقة لا تفنى ولا تُستحدَث». ولكنّ نجاح العلماء في اكتشاف القوانين الطبيعية، جعلهم يتعاملون مع تلك القوانين بوصفها (أوثاناً) فيما يخصّ نظرتهم إلى العالم، تماماً كما فعلوا بخصوص مسألة القياس.

أفضى ذلك إلى افتراض المؤسسة العلمية عدمَ واقعية أيّ حدث لا يمكن تفسيره من القوانين الطبيعية الواضحة السائدة. ونزع العلم إلى قول الآتي فيما يتعلق بالمنهجية: «ما تصعب دراسته جدّاً لا يستحق أن يُدرَس»، وينزع إلى أن يقول فيما يتعلّق بالقوانين الطبيعية: «ما يصعب فهمه جدّاً لا يُعَدُّ موجوداً».

كان أُفق الكنيسة أكثر رحابة – إلى حدٍّ ما – فيما يتعلّق بذلك؛ إذ تَعدّ المؤسسة الدينية ما لا يمكن فهمه، عن طريق القوانين الطبيعية المعروفة، كأنه معجزة، وترى أنّ المعجزات موجودة حقّاً. ولكن، فيما عدا الإقرار بوجودها، فلم تهتم الكنيسة بالبحث عن المعجزات بجدّ. لقد تمثَّل الموقف الديني السائد في «انعدام الحاجة إلى اختبار المعجزات علميّاً، وأنّه يجدر القبول بها بوصفها أفعالاً للقدير ببساطة». لم يرد الديني لموقفه أن يهتز من قبل العلم، تماماً كما لم يرغب العلمي في زعزعة موقفه من قبل الدين.

والظاهر أنّ الكنيسة الكاثوليكية استغلّت ما يبدو إعجازيّاً من حالات الشفاء، على سبيل المثال، لمنح الشرعية لقدّيسيها، وكذا الحال تقريباً بالنسبة إلى الكثير من الطوائف البروتستانتية.

لم تُطالِب الكنيسة الأطباء قطُّ بالانضمام إليها لدراسة تلك الظواهر الخارقة، ولم يسأل الأطباء الكنيسة – في المقابل – أن تشاركهم في اختبار تلك الحوادث علميّاً، التي تُعدّ مهمة جدّاً في مجالهم. وقد

أشارت المؤسسة الطبية، عوضاً عن ذلك، إلى انعدام وجود حالات الشفاء الإعجازية للمرضى، وأنّ الأمراض التي يشفون منها لا وجود لها أصلاً؛ لأنّها تُعدّ أمراضاً وهميةً في نظر المؤسسة، مثل اضطراب ردّ فعل التحويل الهستيري، أو لأنّ تشخيصها قد تم بصورة غير صحيحة. وبوجهٍ عام، يعمد بعض العلماء الجادّين من الأطباء والمتنوِّرين دينيّاً، إلى اختبار طبيعة تلك الظواهر، بما في ذلك الشفاء التلقائي لمرضى السرطان، وبعض الأمثلة الواضحة الدالّة على نجاح العلاج النفسي.

كنت متيقناً قبل خمسة عشر عاماً، حين تخرَّجت في كلية الطب، من عدم وجود المعجزات، لأصبح واثقاً من أنّها توجد بكثرة في يومنا هذا. نتج هذا التغيُّر في وعيي من عاملين متلازمين؛ يتمثَّل أوّلهما في التجارب المتعدّدة التي حظيت بها بوصفي طبيباً نفسيّاً، وبدت اعتيادية جدّاً في بادئ الأمر، لتشير فيما بعد - مع ذلك، حين تأمّلت فيها بصورة أكثر عمقاً - إلى أنّ عملي الهادف إلى نماء المرضى قد لقي الدعم - بصورة ملحوظة- بطريقة لم أجد لها تفسيراً منطقيّاً؛ أي إعجازية بالأحرى. قادتني تلك التجارب، التي قد أتحدّث عن بعضها لاحقاً، إلى التشكيك في افتراضي السابق المُتمثِّل في استحالة حدوث المعجزات، لأغدو منفتحاً - ما إن قمت بذلك - على إمكانية حدوثها. مكَّنني ذلك الانفتاح - فيما بعد، الذي يُمثِّل العامل الثاني في تغيُّر الوعي لديَّ- من بدء التأمُّل في الوجود بعين الباحث عن المعجزات. وقد كنت أجدها فعلاً كلّما بحثت عنها. إذا وجد شيء واحد، لا أكثر، فإنّني آمل أن يقوم به مَنْ سيقرؤون بقية هذا الكتاب، وهو يتمثَّل في استحضارهم القدرة على إدراك حدوث المعجزات.

> كُتِبَ الآتي أخيراً عن هذه القدرة: «ينشأ الإدراك الذاتي وينمو في خضم ما هو مميّز من الوعي، الذي وصفه كثير من الناس المختلفين بالكثير من الطرائق المختلفة. تحدّث الباطنيون عنه، على سبيل المثال، بوصفه إدراكاً للألوهية، وكمالاً للعالم؛ وأشار (ريتشارد باك) إليه بالوعي الكوني؛ ووصفه

بوبر في سياق علاقة الأنا- أنت؛ وأسماه (مازلو) (معرفة الكينونة). أمّا نحن فسنستخدم تعبير (أوسبنسكي)، ونسميه إدراك المعجزات.

لا تشير كلمة (المعجزات) هنا إلى الظواهر الاستثنائية فحسب، بل إلى ما هو مألوف منها أيضاً، حيث يمكن لأيّ شيء بالتأكيد أن يستحضر هذا الوعي المتفرِّد ما دام المرء قد ركَّز انتباهه عليه بما يكفي. يملك الإدراك الحرية، ما إن يتخلَّص من هيمنة الأفكار المسبقة والمصلحة الذاتية، لاختبار العالم كما هو، وتأمُّل روعته الآسرة...

لا يستلزم إدراك المعجزات الإيمان بالمعتقدات، أو افتراض أيٍّ من الأشياء، بل يتمثَّل – ببساطة – في تركيز الاهتمام الكامل على ما تهبه الحياة، الذي يتوافر على الدوام بما يجعلنا نستخف به في أغلب الأحيان.

توجد عجائب الدنيا الحقيقية في كلّ مكان: في أدق مكوّنات أجسادنا، في امتدادات الكون الفسيحة، في الارتباطات الوثيقة بينها وبين الأشياء جميعاً... إنّنا نُمثِّل جزءاً من نظام بيئي متوازن بدقة، تسير فيه اتكاليتنا جنباً إلى جنب مع فرديتنا. نحن أفراد بمجملنا، ولكنّنا جزء أيضاً من كلٍّ أعظم، نتحد ضمن شيء فسيح وجميل يفوق الوصف. وبذا، يُمثِّل إدراك المعجزات الجوهر الفردي للوعي الذاتي، والجذر الذي تنمو منه أسمى مزايا الإنسان وتجاربه»[1].

أعتقد أنّنا نتسم بقدر كبير من الدرامية بخصوص تفكيرنا في المعجزات. لطالما تمحور بحثنا حول الشجرة المحترقة، وانشقاق البحر، والصوت المجلجل القادم من السماء. يجدر بنا، عوضاً عن ذلك، أن نبحث في أحداث الحياة اليومية الاعتيادية عن دليل للمعجزات، وأن نجعل توجُّهنا علميّاً في الوقت نفسه. وهذا ما سأفعله في القسم الآتي، وأنا

1) Michael Stark and Michael Washburn, "Beyond the Norm: A Speculative Model of Self–Realization," Journal of Religion and Health, Vol. 16, No. 1 (1977), pp. 58–59.

أختبر ما هو اعتيادي من الحوادث – في أثناء ممارسة الطب النفسي – التي أوصلتني إلى فهم ظاهرة (النعمة) الاستثنائية.

أودّ أن أختم هذا القسم عموماً بالتنبيه على مسألة مهمّة؛ إذ قد تستند محاولة الربط بين العلم والمعتقد إلى أرضية مهزوزة وغير آمنة. لذا، سنتعامل مع ما يخرج عن النطاق الحسي الاعتيادي من المدركات، وما هو(روحي) أو(خارق) من الظواهر، إضافة إلى أشكال أُخرى متعدّدة من المعجزات. من الضروري أن نتنبّه لهذه المسألة.

حضرت في المدّة الأخيرة مؤتمراً لما يُسمّى (العلاج بالإيمان)، وقد روى عدد من المتحدّثين المتخصّصين قصصاً ليثبتوا أنّهم يملكون قدرات علاجية، بطريقة توحي بأنّ براهينهم مؤكَّدة وعلمية، وهو ما يناقض الحقيقة في اعتقادي. فلو وضع المعالج يده على مفصل المريض الملتهب، على سبيل المثال، لزال الالتهاب في اليوم اللاحق. إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ المعالج قد شفى المريض بصورة فعلية؛ إذ يزول التهاب المفاصل عاجلاً أم آجلاً في العادة، بصورة تدريجية أو مفاجئة، بغضّ النظر عن كيفية علاجها. وتبعاً لذلك، لا تعني حقيقة حدوث أمرين في آنٍ معاً – بالضرورة – أن يكونا مرتبطين بعضهما ببعض. ولأنّ هذه المسألة برمّتها تتسم بالكثير من الإبهام والغموض، فمن المهم أن نقاربها بما هو صحي من التشكيك؛ لكيلا نُضلِّل أنفسنا والآخرين. يكمن واحد من أسباب التضليل، على سبيل المثال، في انعدام القدرة على التشكيك والفحص الصارم للحقيقة، التي يفتقر إليها غالباً المؤمنون بحدوث الظواهر الروحية؛ إذ يدفع أولئك بسلبيتهم المرءَ – عموماً – إلى النظر بريبة إلى تلك الظواهر. ولأنّها تجتذب الكثير ممّن لا يجيدون اختبار الواقع، فإنّ أكثر المراقبين واقعية يميلون إلى استنتاج أنّ الظواهر الروحية لا تُعدّ حقيقية، مع أنّ

الواقع لا ينطبق على ذلك بالمطلق. لذا، يحاول كثيرون إيجاد ما هو بسيط من الأجوبة عن الأسئلة العسيرة، ليقرنوا مفاهيم علمية ودينية شائعة بما هو عالٍ من الآمال. ولكن، بالقليل من التفكير أيضاً.

ختاماً، يجب ألّا يُفهَم من فشل الكثير من محاولات الربط تلك، أنّ القيام بها مستحيل أو غير مستحسن. ويُعدّ لزاماً أيضاً عدم تقييد أنفسنا بالنظرة العلمية الضيقة، يجب ألّا نسمح بتحجيم قدرتنا على النقد والتشكيك في الجمال الآسر لعالم الروح.

obeikandl.com